

سلسلة

المغامرين الاذكياء

رسول منتصف الليل

دار النفائس

١٣

لئن كانت غاية القصة «البوليسية» جذب القارئ، وشدّه إلى متابعة أحداثها، وتعويده على دقة الملاحظة، وحضور البديهة.. إن كتّابها لم يراعوا - في الغالب - العرض الفنيّ والأدبي، ولم يهتموا بالجانب الخلقي، ولم يهدفوا إلى بناء المواطن المثالي؛ لذلك فإنهم إن أفادوا من جانب، فلقد أضروا من جوانب شتى.

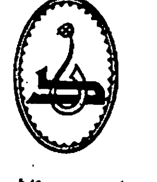
في قصتنا «البوليسية» هذه نعتز بالمحافظة على غاية هذا اللون من القصص، مضافاً إليها العرض الأدبي الرائع، والاعتزاز بالخلق الرفيع، والاهتمام بالمبادئ التربوية القويمة التي جاءت بها ديانات السماء كلها وحَضّت عليها.

بالفخر الكبير، نضع قصتنا هذه بين يدي الآباء والأمهات والأولاد والبنات والأخوة والأحباب وكل الغيارى على الفن والأخلاق.. مؤمنين أن هذا سبيل من سبل خدمة الأجيال.



صدر من

«المغامرون الاذكياء»



المغامرون الأذكياء

رسول منتصف الليل

إعداد وتأليف
عبد الحميد الطرزي

تحرير وإشراف
الدكتور بكري شيخ أمين

دار النفائس

الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م
الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

© دار النفائس

بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقيا : دانفايسكو

رحلة ليلية

كان التأثر واضحاً على وجه خالد ووليد بسبب الفراق المفاجئ . حتى سرور وفصيح وفينو استولى الوجوم عليهم وراحوا ينظرون إلى ليلى وعصام كأنما يحسون إحساساً مبهماً بقرب رحيلهما .

قال خالد محاولاً إقناع الراحلين :

– ألم يكن من الأفضل الانتظار يوماً آخر ثم نذهب جميعاً ؟ إن الرحلة شاقة ، ولا أظن أن دراجة الڤسبا قادرة على إيصالكما .

أجابه عصام وهو لا يقل تأثراً :

– لا شك اني أفضل الانتظار .. ولكن بابا وماما سبقانا إلى هناك منذ ثلاثة أيام كما تعرف .. وأمس اتصلا بنا هاتفياً وألحّا علينا أن نسرع باللحاق بهما لأن جدي تتدهور صحته يوماً بعد يوم ، وهو يلح في رؤيتنا على الفور .

قال وليد مقتنعاً :

– لا بأس ما دامت هذه هي رغبة والديكما . ولكني أنصح بعدم استعمال دراجة الڤسيا في رحلة طويلة كهذه .

ابتسم عصام وقال :

– أتخاف علينا من القسبا ، أم تخاف على القسبا منا ؟
قال وليد محتجاً :
– ويحك يا عصام ! أنت أول من يعلم أني لا أمنعكما شيئاً أملكه . ولو كان عندي طائرة لما تمسكت بها دونكما .. ولكني أخشى عليكما من هذه القسبا القديمة الهرمة . وقد فهمت من كلامك أن مزرعة جدك لا تقع على الطريق العام ، وأنكما مضطران إلى السير في طرق زراعية غير معبدة .
قالت ليلى :
– هذا صحيح .. ولكن ما الضرر في ذلك ؟
أجابها خالد !
– يريد وليد أن يقول إن القسبا قد تتعرض للعطب في الطرق الزراعية غير المعبدة .
قال عصام يشرح الأمر :
– إن للمزرعة طريقين . وأقربهما يمر من جنوبها . وهذا يقتضي السير في طريق رملي يتفرع عن الطريق العام عند الكيلو ٩٠ تماماً .
قال وليد مؤكداً رأيه :
– وهذا ما حملني على تحذيركما .. إن القسبا أضعف من أن تتحمل السير في الرمال ، ولا سيما أنكما اثنان . وهو حمل ثقيل عليها .
قال خالد يسأل :
– وكم يبلغ طول الطريق الرملي يا عصام ؟

أجاب هذا بعد لحظة تفكير :

– حوالي خمسة كيلومترات . وهي مسافة قصيرة كما ترى . وأظن أننا سنصل بسلام إذا سرنا فيها بسرعة معتدلة .

ولاحظ وليد إصرارهما على الرحيل فسكت مكرهاً ..

وقالت ليلى :

– سنصعد لوداع عمي جميل وخالتي سعاد .

وكان المفتش جميل على رأي وليد وخالد في أن الرحلة شاقة قد لا تتحملها الدراجة العتيقة . ولكنه إزاء ما رأى من إصرارهما لم يسعه إلا الموافقة ، وتمنى لهما الوصول بالسلامة . ولم ينس أن يوصيهما بالحذر وبالسير البطيء .

وفي موكب حزين سارت الفرقة حتى باب الفيلا الخارجي لوداع الراحلين .

كان سرور يمسك بيد ليلى متشبثاً بها كأنه لا يريد فراقها . وكان فصيح على كتف خالد يردد :

– مع السلامة .. مع السلامة ..

التفتت إليه ليلى باسمة والدمع يترقرق في عينيها وقالت تجيبه :

– الله يسلمك يا فصيح .

أما فينو فانتظر بوقاره المعروف حتى ركب عصام وليلى القسبا ، فأقبل عليهما يتمسح بهما في حب ظاهر .

أدار عصام محرك الدراجة وقال وهو يلوح بيده :

– إلى اللقاء بعد أسبوع .

قال خالد بصوت مرتفع ليعلو على صوت المحرك :

– اتصل بنا هاتفياً بعد وصولكما لنطمئن عليكما .

وتحركت الدراجة براكبيها ، بينما وقف الباقون يلوحون لهما بالأيدي حتى اختفيا في منحنى الطريق . وعندئذ عادوا إلى داخل البيت يلفهم جو من الحزن والكآبة .

قال خالد :

– إني غير مرتاح لهذه الرحلة .. إن قطع تسعين كيلومتراً ، ثم خمسة أخرى في طريق غير ممهد ليس بالأمر السهل . وكان يجب وقد أصرا على الرحيل أن يبكرا في رحلتهما .

نظر وليد إلى ساعته وقال موافقاً :

– الحق معك .. الساعة الآن هي الثالثة . وأنا أعرف دراجتي جيداً ، فهي لن تستطيع أن تسير بهما في سرعة أكثر من ٢٥ كيلو في الساعة . وعلى هذا أخشى أن يدركهما الظلام في المرحلة الأخيرة من الرحلة .

قال خالد في استسلام :

– ليس أمامنا إلا أن نتمنى لهما الوصول بالسلامة .

لم يكن سفر عصام وليلى هو الحدث الوحيد في ذلك اليوم . ذلك أن المفتش وزوجته كانا ينويان سفراً آخر إلى الساحل لحضور حفل قران ابن شقيق السيدة سعاد . وقد فضلا ترك ابنهما خالد في المنزل مدة غيابهما التي لن تزيد على ثلاثة أيام . وذلك لكي يرعى شؤون الحيوانات الثلاثة :

فينو وسرور وفصيح ، إذ كان اصطحاب هؤلاء في حال ذهاب خالد معهما لا يستحق كل هذا العناء لقصر المدة وبعد الطريق .

وبعد إعداد الحقائب والتهيؤ للرحيل قال المفتش جميل لوليد :

– هل ستبقى مع خالد في المنزل يا وليد ؟

أجاب وليد من فوره :

– وهل في ذلك شك يا عم ؟ هل من المعقول أن أتركه وحده بعد أن سافر الجميع ؟

ضحكت السيدة سعاد وقالت :

– ستكون فرصة لك لتنفرد بخالد وتهزمه في الشطرنج .

قال وليد متحمساً :

– لا أشك في ذلك .. وبعد عودتكما ستسمعان منه اعترافاً كاملاً بعدد الهزائم التي سيكون قد مني بها .

وأمضوا الساعة التالية في حديث مرح . ثم قال المفتش :

– هيا يا سعاد .. لقد حان الوقت ..

قالت السيدة سعاد :

– ألا ترى أن ننتظر ساعة أخرى حتى تخف حدة الحرارة ويبرد الجو ؟

قال المفتش :

– أحب أن نصل قبل حلول المساء ..

ونهض ونهضت السيدة . وأسرع خالد ووليد فحمل كل منهما حقيبة . ومضى الجميع إلى السيارة التي كانت رابضة أمام الباب الخارجي للمنزل .

فتح المفتش الصندوق الخلفي للسيارة حيث أودع خالد ووليد الحقيبتين ، ثم أعاد إقفاله ومضى إلى مكانه وراء عجلة القيادة .

وصعدت السيدة سعاد إلى جانبه بعد أن قبلت كلاً من خالد ووليد ، وقالت وهي تغلق على نفسها باب السيارة :

– انتبها إلى أنفسكما وإلى المنزل .. إننا لن نتأخر كثيراً .

قال خالد يطمئنها :

– لا تقلقي علينا يا ماما .. سنكون بخير .. وأرجو لكما سفراً سعيداً .. وبلغي خالي وابنه العريس تهانئي القلبية ..

وانطلقت السيارة من أمام المنزل تشيعها أنظار أعضاء الفرقة الحزينة الذين ظلوا في أماكنهم صامتين عدا فصيح الذي لم يكف عن الصراخ :

– مع السلامة .. مع السلامة .

وفي طريق العودة لاحظ خالد أن دراجته القسبا موجودة في الحديقة فقال :

– هيا يا وليد ندخل القسبا إلى المرآب حتى لا تظل هكذا معرضة للشمس ، وللرطوبة بالليل .

ودفعاها معاً إلى المرآب ، فوضعاها إلى جانب المقطورة التي صنعوها بأنفسهم لتتسع الدراجة ومقطورتها لجميع أفراد الفرقة .

وقف خالد يتأمل المقطورة ثم قال :

– لا بأس بشكلها .. إنها جميلة ..

ضحك وليد وقال :

– المهم أنها تتسع لفينو وسرور .
فكر خالد لحظة ثم قال ضاحكاً ممازحاً :
– ولكن الحمل ثقيل على المحرك .. ولا سيما أنك وحدك تزن ثمانين كيلو .
قال وليد متجاهلاً مزاح خالد :
– حقاً الحمل ثقيل .. ولكن التجربة أثبتت قوة محرك دراجتك .
وغادر الجميع المرآب ، ودخلوا إلى داخل المنزل حيث وضعا بينهما رقعة الشطرنج واستغرقا في اللعب في صمت وانتباه .
وبعد ساعات لم يتمكن وليد خلالها من ربح جولة واحدة ، قال في استسلام :
– يكفي هذا .. إنك محظوظ كعادتك .. ولكن كن واثقاً أنني سأنتقم يوماً ما .. وسوف يكون انتقامي رهيباً .
ضحك خالد حينما صاح فصيح :
– خالد رائع .. خالد رائع . !
التفت وليد إليه وقال بغيظ :
– عرفنا جميعاً أن صاحبك رائع .. ولكن عرفنا أيضاً أنك حمار ..
نظر فصيح إليه مبهوتاً من هذا الهجوم المفاجئ ، وسكت لحظة بينما انطلق سرور يقفز في الهواء ويضحك معبراً عن شماتته بصديقه اللدود .
واغتاظ فصيح من سرور أكثر من غيظه من وليد ، فانطلق ليعتلي الستارة وهو يصيح :

– سرور حمار . ! فصيح رائع . ! خالد رائع . ! وليد لا .

انفجر وليد ضاحكاً بينما راح خالد يحاول تهدئة سرور بإسكات فصيح الذي استرسل في شتائمه التي كان يكيلها بغير حساب .

وبعد أن تمكن خالد من فض النزاع نظر إلى ساعته وقال :

– هيا نشاهد الحلقة الجديدة في التلفزيون .. إنني معجب بهذا البرنامج جداً ..

قال وليد موافقاً :

– وأنا كذلك .. فهي حلقات ممتعة حقاً ..

وانتقلا إلى غرفة الجلوس حيث جهاز التلفزيون . وذهب خالد إلى غرفة الطعام ليعود بعد قليل وفي يديه زجاجتان من شراب البرتقال . فدفع بإحداهما إلى وليد ، وجلس على المقعد لمشاهدة الحلقة وهو يتناول من الشراب المثلج جرعات متقطعة .

قال وليد وهو يسترخي في مقعده :

– لقد أرهقني الشطرنج كثيراً .. إني كلما لعبته شعرت بالصداع ..

ولم يكد يتم كلامه حتى تعالى رنين الهاتف ، فنهض خالد إليه وهو يقول :

– لا شك أنها مكالمة خارجية من عصام ..

ورفع السماعة إلى أذنه ، وأصغى قليلاً ثم قال :

– هذا هو رقمنا يا آنسة .

ثم التفت إلى وليد وقال :

– تعال .. ألا تريد محادثة عصام وليلى ؟

نهض وليد واقترب منه حين سمعه يعود إلى المكالمة قائلاً :

– ألو .. مَنْ ؟ عمي سعيد ؟ مساء الخير يا عمي .. ماذا تقول ؟ .. لقد انطلقا منذ الساعة الثالثة بعد الظهر .. كيف لم يصلا حتى الآن . ؟

امتقع وجه وليد ، بينما راح خالد يتابع الحديث وقد اكتسى وجهه بمسحة من الجد :

– يجب البحث عنهما في الطريق ، فربما أصيبت دراجتهما بعطب .. نعم يا عمي . سأنطلق مع وليد من هنا على الطريق نفسه .. سنلتقي حتماً .. ماذا تقول يا عمي ؟ وهل نستطيع الانتظار حتى الصباح ؟ .. لا تخش علينا .. سنرحل من فورنا للبحث عنهما .. وإذا خرجت أنت بسيارتك من جهتك فسوف نلتقي في منتصف الطريق .. ولا بد أن نعثر عليهما ..

ووضع السماعة وقال :

– لقد وقع ما كنا نخافه ، فلا شك أن الدراجة تعطلت بهما .. سنذهب سريعاً يا وليد .

نهض وليد قائلاً :

– إذن أسرع ولا تنس إحضار المصابيح الكهربائية اليدوية .

وبسرعة فائقة أعد خالد بعض اللوازم الضرورية في مثل هذه المهمات المفاجئة . ثم غادروا الفيلا جميعاً بعد أن أحكموا إغلاقها .

ركب وليد القسبا بعد أن أخرجوها من المرآب ، بينما جلس خالد في المقطورة التي ربطها بالدراجة . وكذلك فعل كل من فينو وسرور وفصيح . وبعد أن أخذ كل فرد مكانه انطلق وليد بالدراجة في أقصى سرعة ممكنة .

وتوقف الركب في محطة بنزين حيث ملأ وليد خزان الدراجة بالوقود ، ثم أخذ كمية احتياطية كافية ، ثم انطلق مرة أخرى .

كان وليد على حق في إطرائه لمحرك دراجة خالد ، إذ انطلقت بحملها الثقيل بسرعة لا بأس بها . وكانوا جميعاً صامتين ، حتى فصيح نفسه لم ينطق بكلمة واحدة . واستغرق خالد في تفكير عميق . وبين الحين والحين كان وليد يختلس النظر إليه فيزداد كآبة لما يلمحه على وجهه من أمارات الحزن والقلق .

كان الطريق شبه خال على الرغم من أنه لم يمض من الليل سوى ساعات قليلة . وقال خالد :

– إذا ظللنا على هذه السرعة فأظن أننا سنصل بعد ساعتين . أليس كذلك ؟

أجابه وليد :

– تقريباً .. ولكنني في حيرة .. فهل سنظل على الطريق العام ، أم سنسلك الطريق الجانبي ؟

أجاب خالد :

– لا أظن أننا سنصل إلى مفترق الطريق الجانبي . إذ سنتقابل مع العم سعيد قبل ذلك بمسافة كبيرة .

قال وليد :

– افرض أن العم لم يخرج إلى الطريق للبحث عن ليلى وعصام .

قال خالد :

– لقد وعدني بالخروج ، وليس هناك ما يدعوه إلى اخلاف وعده . وإذا حدث أنه لأمر ما لم يتمكن من الخروج فإن وصولنا متأخرين ساعة أو نصف ساعة لن يغير من الأمر شيئاً .

وعاد الاثنان إلى الصمت مرة أخرى . وشعر الجميع أن الوقت يمر ببطء زائد ، فقال وليد يحاول ملء الوقت بالحديث :

– لا شك أن الڤسبا تعطلت .. كنت أعلم أن شيئاً كهذا قد يحدث .. وكان في امكاني أن أعارض هذه الرحلة بقوة أكثر ، ولكني خشيت أن يفسر عصام ذلك بأني أبخل عليه باستعمال الدراجة .

تنهد خالد وقال :

– ما هذه الأفكار الصبيانية ؟ نحن جميعاً كشخص واحد .. ليس بيننا ملكية شخصية .. وما يملكه أحدنا هو ملك للجميع .

قال وليد :

– لا شك في ذلك يا خالد . ولكن الموقف كان حساساً ، فلو أصررت على عدم سفرهما بالڤسبا لتأثر عصام أشد التأثر .

نظر خالد إلى الطريق أمامه وقال :

– ها هي أول سيارة تقابلنا في هذا الطريق الموحش .

قال وليد :

– لا شك أنها سيارة العم سعيد .

واقترب الضوء ، ووضحت الرؤية ، وهدأت السيارة من سرعتها ، ثم توقفت على بعد خطوات من الدراجة التي توقفت قبلها . وهبط من

السيارة العم سعيد وفي صحبته أحد حراس المزرعة بسلاحه على كتفه .

قال العم سعيد :

– أهلاً يا خالد .. مرحباً يا وليد ..

كان صوت العم سعيد مهتزاً بعض الشيء وهو يرحب بهما .

سأله خالد في لهفة :

– ألم تصادفهما في الطريق يا عمي ؟

أجابه أبو عصام بسرعة :

– اتصلا بنا هاتفياً .. وهما بخير عند أخي في مزرعته .. وقد عرجا عليه بينما كانا في الطريق إلينا ..

تنهد وليد بارتياح وقال :

– الحمد لله .. !

كان خالد يفكر بسرعة في هذه المتناقضات التي يسمعها ، فعصام لم يذكر شيئاً عن نيته في زيارة عمه ، وكذلك ليلى . ولو فرضنا أن الفكرة خطرت لهما وهما في الطريق فليس من المعقول أن ينفذها عصام في مثل هذا الظرف ، فهو وأخته أكبر نضجاً من أن يقوما بمثل هذا العمل الطائش الذي لا بد أن يثير قلق الجميع .

وقال خالد يسأل العم :

– ولكن لماذا لم يخبرانا بذلك يا عمي ؟ إنهما لم يطرقا أي حديث عن عمهما أو عن مزرعته .

وتلعثم العم سعيد قائلاً وهو يجيب :

- ألا تعلم حبهما للمفاجآت ؟ لقد جعلاها مفاجأة لعمهما ..
وسكت ليرى مدى اقتناع خالد بما يقول ، ثم استأنف مغيراً مجرى الحديث :
- هيا .. هل سنظل في الطريق هكذا نتحدث ؟ اتبعاني بدراجتكما ..
قال خالد :
- لا يا عمي .. سنعود إلى المدينة ، فقد تركت المنزل دون أن يعلم بابا وماما ، لأنهما سافرا بعد ظهر اليوم إلى الساحل . وأخشى أن يتصلا بي هاتفياً فلا يجداني .
وبدا على العم سعيد اقتناع سريع بحجة خالد ، بل بدا كأنه يرحب بهذه الحجة حين قال :
- معك حق .. إذن مع السلامة يا خالد .. مع السلامة يا وليد .
ومضى العم أبو عصام إلى سيارته فركبها حين قال خالد لوليد :
- وليد .. استدر وعُد بنا نحو المدينة .
وظلت السيارة في مكانها لا تتحرك حتى استدارت دراجة الڤسبا وأخذت في طريق العودة ، عندئذ استدارت هي الأخرى وانطلقت في الجهة المعاكسة .
قال وليد :
- خالد .. ألم تلاحظ شيئاً غريباً في تصرفات العم سعيد ؟
كان خالد غارقاً في التفكير بالموضوع عينه ، فقال :
- هذا ما يشغلني يا وليد .. ليس من المعقول أبداً أن يتركنا العم سعيد نعود بمثل هذه السهولة دون أن ننال قسطاً من الراحة ، أو نتزود على الأقل

ببعض الوقود والطعام .

قال وليد :

– خيّل إلي أنه رحب بعودتنا .. وبدا كأنه يريد التخلص منا بسرعة .

قال خالد موافقاً :

– واضح جداً أنه ارتاح لعودتنا .

وساد الصمت برهة ، ثم قال خالد فجأة :

– قف يا وليد .

ودون سؤال أوقف وليد الدراجة والتفت إلى خالد الذي قال :

– علينا أن نعود مرة أخرى ونسلك الطريق الجانبي الذي تحدث عنه عصام .

نفذ وليد الأمر ، وانطلقت الدراجة مرة أخرى باتجاه مزرعة آل عصام وليلى .

كانت أعصابهم مشدودة متوترة . وكان هرير فينو الخافت يدل على مدى ما كان يحسه من قلق وغيظ . وكان سرور مقطباً متجهماً خلافاً لعادته المألوفة . وكان لا يفتأ ينقل بصره بين وجه وليد ووجه خالد كلما دخلا في حوار عن عصام وليلى .

وقال خالد :

– خطر لي خاطر غريب قد يفسر تصرفات العم سعيد غير المعقولة .

قال وليد يسأل بلهفة :

– وما هذا الخاطر ؟

قال خالد :

- لعلك لاحظت أنه كان مضطرباً ، وأنه كان يتلعثم ويتعثر في كلامه .. وأنه كان قلقاً .. بل كان شارداً ؟

قال وليد :

- نعم لاحظت ذلك .. بل يخيل إلي لحظة أنه لم يكن معنا بفكره .

عاد خالد يقول :

- وإذا كان الأمر كذلك فما سر قلقه واضطرابه بعد أن اطمأن على ولديه ؟

ولم يتلق خالد أية إجابة على سؤاله من وليد ، فعاد يقول :

- إن هذا القلق لا يفسره إلا شيء واحد ، وهو أن الولدين لم يصلا إلى المزرعة ، وأن قصة وصولهما إلى مزرعة عمهما مختلقة ليس لها صحة .

قال وليد متسائلاً في بلاهة :

- وأين ذهبا إذن ؟

ولم يجبه خالد بشيء ، فعاد يسأل :

- وأين ذهبا إذن ؟ ولماذا يخترع أبوهما حكاية زيارتهما لعمهما ؟

قال خالد في هدوء وهو يفكر بعمق :

- هذا ما نحن بسبيل كشف سره يا وليد .. وأرجو أن أكون مخطئاً في ظني ..

وساد الصمت مرة أخرى . ولم يكن يسمع إلا هدير محرك الدراجة المنطلقة في أحشاء الظلام . وبعد مسير نصف ساعة تقريباً أشار خالد بيده

إلى وليد وهو يقول :

– هدئ سرعتك يا وليد .. لقد أصبحنا على مقربة من مفترق الطريق الجانبي .

وهدأت سرعة الدراجة شيئاً فشيئاً إلى أن هتف خالد قائلاً :

– من هنا يا وليد .. خذ يسارك .

وأطاع وليد ، وعرج بالدراجة في طريق زراعي ترابي ، وراح يقودها ببطء وحذر وهي تتقافز متدحرجة فوق الحجارة والحفر الصغيرة .

وبعد دقائق من هذا السير المضطرب قال خالد :

– قف هنا يا وليد .. إنني أود أن أفحص الأرض لعلنا نهتدي إلى أثر يدل على أن دراجة عصام وليلى مرت من هنا .

أوقف وليد الدراجة ، وأطفأ محركها ، وهبط عنها ، وراح هو وخالد يتفحصان الأرض على أضواء مصباحيهما اليدويين .

وبعد لحظات هتف وليد يقول :

– أنظر يا خالد .. هذا أثر القسبا .

سلط خالد ضوء مصباحه إلى حيث أشار وليد فشاهد آثار عجلات واضحة .

انحنى على الأرض ، وفحص الأثر بدقة وقال :

– إنه فعلاً أثر عجلة صغيرة يرجح أنها لدراجة قسبا ..

قاطعه وليد قائلاً :

ليس الأمر أمر ترجيح .. إنها القسبا نفسها .. فهذه آثار عجلتها الخلفية

التي أعرفها جيداً .

عاد خالد يتطلع إلى الأرض ، ثم قال :

– أتعني الأثر المختلط هذا ؟ إن نقوش العجلة الخلفية خطوط متوازية ، أما العجلة الأمامية فنقوشها خطوط منكسرة .

أجابه وليد :

– بالضبط .. إن اطار العجلة الخلفية قد بدلته منذ مدة قريبة ، وهو يختلف في صناعته عن اطار العجلة الأمامية .

قال خالد :

– هذا يثبت أننا في الطريق نفسه الذي سلكه عصام وليلى قبلنا .

ثم نهض وهو يقول :

– اتبع الأثر يا وليد .

وعادا إلى مكانيهما ، وتحركت الفسبا مرة أخرى عندما خرج فصيح عن صمته فجأة وهو يردد :

– اتبع الأثر يا وليد .. اتبع الأثر يا وليد ..

ضحك خالد ، والتفت وليد إليه وقال باسماً :

– سمعاً وطاعة يا فصيح .. سأتبع الأثر .

ومر نصف ساعة ووليد لا يفلت الأثر . وفجأة توقفت الدراجة مرة أخرى وترجل وليد وخالد .

قال وليد وقد سلط نور مصباحه نحو الطريق :

– أمر غريب جداً يا خالد .. أنظر .. لقد اختفى الأثر فجأة ؛ وحلت

محله آثار لإطارات سيارة .

انحنى خالد ليفحص الآثار الجديدة ، ثم سار خطوات توقف بعدها وقال :

– إن آثار القسبا لا تزال موجودة وان كان من الواضح أن بعضهم قد تعمد طمسها بآثار عجلات السيارة .

سأله وليد :

– كيف .. ؟ إني لا أرى أي أثر للقسبا .

أجابه خالد :

– لو أمعنت النظر لرأيت أن قائد السيارة تعمد السير فوق أثر القسبا .. ولا أظن أن هذا من قبيل المصادفة .

سأله وليد بقلق واضح : .

– ماذا تريد أن تقول يا خالد . ؟ هل تظن أن هناك خطراً يتهدد الرفيقين ؟

أجاب خالد بقلق لم يستطع إخفاءه :

– يبدو لي أنهما في أزمة من نوع معين .. المهم أن نستمر في طريقنا مقتفين آثار السيارة بدلاً من آثار الدراجة حتى نصل إلى مكانهما .

أجابه وليد وهو يتطلع إلى السماء :

– سنفعل يا خالد .. ها هو ذا الفجر قد لاح ، وبعد نصف ساعة على الأكثر سيغمر الكون الضياء ، ويسهل علينا تتبع الأثر .

قال خالد بهدوء وعزم :

– وسنصل إليهما إذا كانا في هذه الناحية .. والآن نتوقف نصف ساعة لتناول طعام الإفطار وشرب كوب من الشاي . وفي هذه الأثناء ستكون الرؤية سهلة فنعود إلى متابعة الأثر .

انعطف وليد بالدراجة إلى أحد جانبي الطريق ، وتوقف ، وترجلوا جميعاً ، وجلسوا يتناولون إفطارهم بحركات جامدة لا روح فيها على عكس ما اعتادوا عليه من مرح أثناء تناول الطعام .

ومرت دقائق ، ووضحت الرؤية ، فنهض خالد وتطلع حوله فشاهد على بعد عدة مئات من الأمتار خطاً طويلاً من الأشجار العالية ، فقال :

– أنظر يا وليد .. هناك حيث الأشجار ..

وتطلع وليد إلى حيث أشار خالد ، وقال :

– يبدو أنها ضيعة ..

قال خالد :

– سيكون هدفنا الوصول إلى هذه الأشجار ، وسنرى هل تجاوزتها السيارة أم دخلت إلى الضيعة .

صاحب الضيعة

راحت الڤسبا تتهادى فوق الطريق الترابي متجهة نحو الأشجار التي كانت تملأ خط الأفق . وكان ضوء الفجر قد عم الكون كله ، واتضحت معالم الأشياء . قال وليد :

– إنها حقاً ضيعة . وها هو ذا الطريق ينتهي عند حدودها .

أجابه خالد وهو ينظر إلى الطريق أمامه :

– إن الطريق لا ينتهي هنا يا وليد ، ولكن يبدو أن استعماله حتى هذا المفترق أكثر بكثير من استعمال باقيه .

وسأله وليد :

– و بماذا تشير الآن . ؟

أشار له خالد ليتوقف ، وقفز من مكانه في المقطورة ، ومضى نحو المفترق وهو يفحص الأرض بامعان ، ثم توقف في مكانه وقال :

– هلمّ يا وليد .. إن السيارة دخلت إلى الضيعة . لا شك في هذا .

قال وليد :

– لا شك أن أهل الضيعة استيقظوا وانطلقوا إلى الحقول . وسنحاول سؤالهم ، فر بما أفادونا ببعض المعلومات .

ضحك خالد من أعماقه وقال :

– و بماذا تظنهم سيمدونك . ؟ أطلب من الله أن يكون طريقهم غير هذا الطريق ، وإلا فإن حيواناتهم ستكون قد طمست أي أثر يهدينا إلى غايتنا .

كان واضحاً أن الطريق خاص بصاحب الضيعة ، لأنه كان يؤدي إلى أكبر منزل فيها . ومع ذلك فقد ساروا فيه ببطء متتبعين آثار عجلات السيارة .

ولم يمض إلا قليل حتى بدا في نهاية الطريق مبنى كبير يتصاعد الدخان من إحدى مداخنه .

قال خالد :

– لا شك أنه منزل صاحب الضيعة .

قال وليد معقباً :

– وقد يكون مستأجراً للدار والأرض ..

قاطعه خالد قائلاً :

– المهم أن نكون على أعلى درجات الحذر ، فقد تكون ليلى وشقيقها عصام في الداخل .

قال وليد يسأل :

– و بماذا تشير إذن .. ؟ إننا نقترب من الدار ، وإن كانوا لم يرونا بعد فسيروننا بعد قليل .

أجابه خالد :

– سنسأل من نلقاه هناك شيئاً من المساعدة وندعي أننا بحاجة لبعض

البنزين .

اقتربت الدراجة بركبها القريب حتى توقفت أمام باب الدار الذي تفصله عن الطريق حديقة صغيرة محاطة بالأسلاك الشائكة من كل جانب . وهبط الجميع من مقاعدهم حين وقفت الدراجة حتى فصيح الذي اعتلى كتف خالد وهو صامت ينظر بعينيه ولا ينطق بشيء .

مد سرور يده وأمسك بيد خالد وسار إلى جواره ، أما فينو فكان يسبقهما بأمتار . ووقف ينظر إلى خالد كأنما يسأله عن الخطوة التالية .

قال خالد :

- صفق بيديك يا وليد .

صفق وليد عدة مرات . ولكن لم يظهر أحد ، فقال خالد :

- أمر غريب . ! لا شك أن بالداخل ناساً .. وإلا فكيف يتصاعد هذا الدخان من المدخنة ؟

قال وليد :

- ولماذا لا نقرع الباب ؟

تقدم خالد إلى الباب وراح يقرعه قرعات متقطعة ، وينتظر بين كل مرة وأخرى . وطال القرع دون أن يجيب أحد . ووقف الجميع متوتري الأعصاب يترقبون ، وفينو قد انتصبت أذناه وأخذ يهر بصوت خافت وهو ينظر إلى الباب المغلق .

وأخيراً سمع خالد حركة بالداخل فقال :

- أحدهم قادم لفتح الباب .

وما كاد يتم كلامه حتى سمعوا صوت الرتاج يتحرك من موضعه ، ثم فتح الباب ، وظهر من خلفه شيخ في العقد السابع من عمره تكسو وجهه المعروق الشاحب لحية بيضاء مدببة ، وينبعث من عينيه الغائرتين بريق قوي لا يتلاءم مع مظاهر الضعف البادية على قسمات وجهه .

نظر الشيخ إليهم نظرات نافذة وقال بصوت مرتعش :

– من أنتم . ؟ وماذا تريدون ؟

أجابه خالد :

– لا تؤاخذنا على ازعاجك في هذه الساعة المبكرة . ولكننا اضطررنا إلى ذلك اضطراراً .

قال الشيخ وهو لا يزال يسد بجسمه فرجة الباب :

– وماذا تطلبون . ؟

أشار خالد إلى الدراجة الواقفة أمام باب الحديقة وقال :

– لقد أوشك البنزين أن ينفد بعد أن أمضينا الليل ونحن ندور في هذه المنطقة . .

قاطعه الشيخ قائلاً :

– ولماذا الدوران ؟ ألا تعلمون أنه لا توجد في الناحية أية محطة للبنزين ؟

قال خالد وهو يتفرس في وجه الشيخ ليرى أثر كلماته فيه :

– لم نكن نبحث عن بنزين .. بل كنا نبحث عن دراجة فسبا يركبها فتيان .

وطرفت عينا الشيخ برهة قصيرة ، ثم قال في نبرة حاول أن يجعلها عادية :

– آ .. دراجة قسبا يركبها فتى في مثل عمركما ، ومعه فتاة . أليس كذلك ؟

وأسرع وليد إلى الإجابة وقد فرح للنبأ :

– نعم . نعم .. أين هما ؟

وضغط خالد على يد وليد حتى لا يسترسل في الأسئلة التي قد تثير الشكوك ، وتؤدي إلى عكس النتيجة المرجوة . وقال الشيخ :

– لقد مرّا من هنا البارحة ، وتوقفا لسؤالي عن الطريق ، ثم انصرفا بعد أن أرشدتهما ...

سأل خالد في هدوء :

– وكم كانت الساعة يا سيدي ؟

أجاب الشيخ وذلك الوميض لا يزال ينبعث من عينيه الضيقتين :

– كانت الساعة حوالي الثامنة .. نعم .. كانت الساعة هي الثامنة بالضبط .

قال خالد في رقة وأدب :

– نشكرك جداً يا سيدي ، ونكرر أسفنا الشديد لإزعاجك .

واطمأن الشيخ لما رأى من أدب خالد فقال في لهجة ودية :

– لا بأس يا ولدي .. تفضلا لتناول كأس من الشاي ريثما أحضر لكما بعض البنزين من المرآب .

لبى خالد دعوة الشيخ شاكراً ، ودخل هو وأصحابه إلى حجرة واسعة قد فرشت بأثمن أنواع الأثاث ، ولكن الاهمال كان بادياً على المكان مما يدل

على عدم وجود خدم أو سكان غير الشيخ صاحب البيت .
وتركهم الشيخ ومضى إلى إعداد الشاي كما وعد ، فقال وليد هامساً :
– أنا لا أشعر بالاطمئنان لهذا الشيخ .. إني أحس أنه يخفي شيئاً ..
قال خالد في مثل همسه :
– وأنا مثلك . ولكن علينا أن نتظاهر بالاطمئنان لئلا يشك فينا فيزداد حرصه ولا نبلغ منه ما نريد ..
قال وليد وقد بدا عليه القلق :
ماذا تعني . ؟ هل تظن أن لهذا الرجل علاقة باختفاء عصام وليلى ؟
أجابه خالد :
– هذا ما يبدو لي ، فقد كذب في تحديد ساعة مرور عصام وليلى من هنا .
قال وليد :
– ولماذا تظن أنه كاذب ؟ ربما مرا حقاً في ذلك الوقت .
قال خالد بهدوء :
– ربما .. ولكني أحس احساساً داخلياً بأنه كاذب .
وفي هذه الأثناء كان فينو يتشمم الأرض باهتمام . وأخذ يدور في أرجاء الحجرة ثم انطلق خارجاً منها ، فقال خالد :
– لقد عثر فينو على رائحة أثارت اهتمامه .. وقد تكون رائحة عصام وليلى .
قال وليد يلفت انتباه خالد :

- لقد غادر الحجرة .. هلمّ بنا نتبعه .
قال خالد بحزم :
- لا يا وليد .. دع فينو يقتفي أثر الرائحة وحده .. إن تنقلات كلب في المنزل لن تثير شبهة أحد .. أما إذا تبعناه فإن الأمر سيختلف .
قال وليد :
- ولكن ربما أثار خوف بعض سكان الدار من النساء والأطفال .
قال خالد يطمئنه :
- لا تخش شيئاً .. أظن أن الدار خاوية لا يسكنها أحد غير هذا الرجل الشيخ .. ألا ترى هذا الغبار المتراكم على قطع الأثاث ؟ ثم لو كان في الدار سكان آخرون لفتح لنا أحدهم الباب من أول طرقة عليه .

وفي هذه اللحظة ظهر الشيخ حاملاً صينية عليها ثلاثة كؤوس من الشاي ، فأسرع إليه وليد ليحملها عنه .

وجلسوا لتناول الشاي ، فعاد الشيخ يرحب بهما ، ثم قال :
- يبدو انكما تقومان برحلة .. هل سبق لكما المرور من هذا الطريق . ؟
قال خالد في أدبه المعهود :
- الواقع أننا لا نقوم برحلة بالمعنى الصحيح .. إننا نبحث عن صديق لنا مع أخته ، وهما اللذان مرا بك .
قال الشيخ :
- ولكن لماذا تبحثان عنهما ؟
قال خالد :

– لقد كانا في الطريق إلى مزرعة والدهما القريبة من هذه الضيعة . ولما تأخرا في الوصول إلى المزرعة وقتاً غير معقول خرجنا نبحث عنهما .

قال الشيخ يسأل :

ومن يكون والدهما ؟

قال خالد :

– إنه السيد سعيد البحري .

قال الشيخ وقد تهلل وجهه :

– إذن هذان ولداه . ؟ إنني أعرفه جيداً .. ولكن لماذا اختارا هذا الطريق الترابي ولمزرعة والدهما طريق مسفلت يربطها بالطريق العام ؟

قال خالد :

– لقد قالا إن هذا الطريق أقرب .

قال الشيخ :

– هذا صحيح ..

وكف فجأة عن الكلام ، ولاحت في عينيه نظرة خوف وهو يتطلع إلى باب الدار .

نظر خالد ووليد إلى حيث كان ينظر الشيخ فرأيا شاباً مفتول العضلات ضخم الهيكل بادي القوة يتقدم ببطء إلى حيث جلسوا وعيناه القاسيتان ترمقان الزائرين الوافدين بنظرة نافذة .

قال الشيخ يعرف بالقادم :

– هذا ابن أخي .. اسمه قاسم .

التفت الفتيان إليه وهمّا بتقديم أنفسهما إليه ، ولكن الكلمات احتبست في حلوقهما إذ بادرهما بالتوجه إلى عمه بكلامه قائلاً في لهجة قاسية خالية من التهذيب :

– من يكون هذان . ؟ ولماذا جئت بهما إلى هنا . ؟ ألم أحذرك مراراً من السماح للغرباء بالدخول إلى هذه الدار ؟

أجابه الشيخ بصوت بدا عليه الارتباك والخوف :

– ولكن لم أدعهما .. هما اللذان جاءا يطلبان المساعدة .

نظر الشاب إليهما في شك وقال :

– وأية مساعدة تريدان منا . ؟

أجابه خالد بهدوء :

– بعض البنزين إذا وجد ، وإرشادنا إلى صديق لنا ومعه شقيقته سبقانا في الطريق نفسه ، ومرا من هنا مساء البارحة .

لمع بريق مخيف في عيني قاسم القاسيتين ، وأجاب بغلظة قائلاً :

– لا علم لنا بشيء .. لم يمر بنا أحد .. وليس عندنا بنزين .

كاد خالد يرد عليه بما يشعره بأنهما ليسا ممن يخاف غلظته أو يرهب جفاءه ، ولكن الشيخ سبقه إلى القول :

– لا بأس من تزويدهما ببعض البنزين يا قاسم .. إن المنطقة خالية من أي محطة يمكنهما أن يتزودا منها .

أجابه قاسم بقسوة وجفاء :

– وهل نحن مسؤولون عن ذلك ؟ ولماذ الم يتزودا بما يكفي لرحلتهما ؟

أجابه خالد بلهجته الهادئة :

– لقد فعلنا ذلك ، وكان معنا فائض إضافي ، ولكننا استهلكناه ونحن نبحث عن صديقنا وشقيقته .

قال قاسم :

– وهذا أيضاً أمر لا شأن لنا به .

ولم يطق وليد صبراً أمام عنجهية قاسم وغلظته ، فقال :

– ومن قال أن لكم شأناً في شيء ؟ زودونا ببعض الوقود وخذوا ثمنه .

رد قاسم ببرود :

– ليس عندنا بنزين للبيع .. والآن تفضلا بالرحيل .

وحاول الشيخ أن يتوسط في الخلاف ، ولكن ابن أخيه رماه بنظرة اسكتته ، وقال متابعاً :

– هيا .. انصرفا من هنا ، ولا تحاولا العودة مرة أخرى .

نهض خالد ووليد وتأهبا للانصراف . وقال خالد للشيخ :

– أشكرك يا سيدي على حسن ضيافتك .

وصافحاه واحداً بعد الآخر ، ومضيا نحو الباب وقاسم خلفهما . وفي هذه اللحظة ظهر فينو عائداً من الخارج ، فما كاد يقع بصره على قاسم حتى كشر عن أنيابه مزمجراً مهدداً ، ووقف في مواجهته في حالة تأهب للانقضاض عليه .

هتف به خالد محذراً :

– فينو ! !

ولكن فينو كان يقترب من قاسم ويتحفز للانقضاض عليه . وأدرك خالد ما يهم به فأسرع إليه وأمسكه من رقبته ، وسحبه ليخرجه من الباب وهو يقاومه بعناد ويزمجر في غضب مكتوم . ولم يفلته خالد حتى وضعه في مقطورة الدراجة وهو على حالته من العصبية والتوتر الظاهرين .

وعندما تحركت بهما الفسبا قال وليد :

– ترى ماذا دهاه . ؟ إنه غاضب جداً .

كان خالد يرقب فينو الذي لم يحول نظره عن قاسم وعمه الشيخ ، ثم انطلق ينبح بغضب وهو ينتفض من الانفعال . فقال خالد :

– لا بد أن فينو عثر على رائحة ليلى وعصام في مكان ما في المنزل . وهذا سبب غضبه .

قال وليد يسأل :

– ولكن لماذا كان غضبه من قاسم دون الشيخ ؟

أجابه وهو يربت على رأس فينو ليهدئ من غضبه :

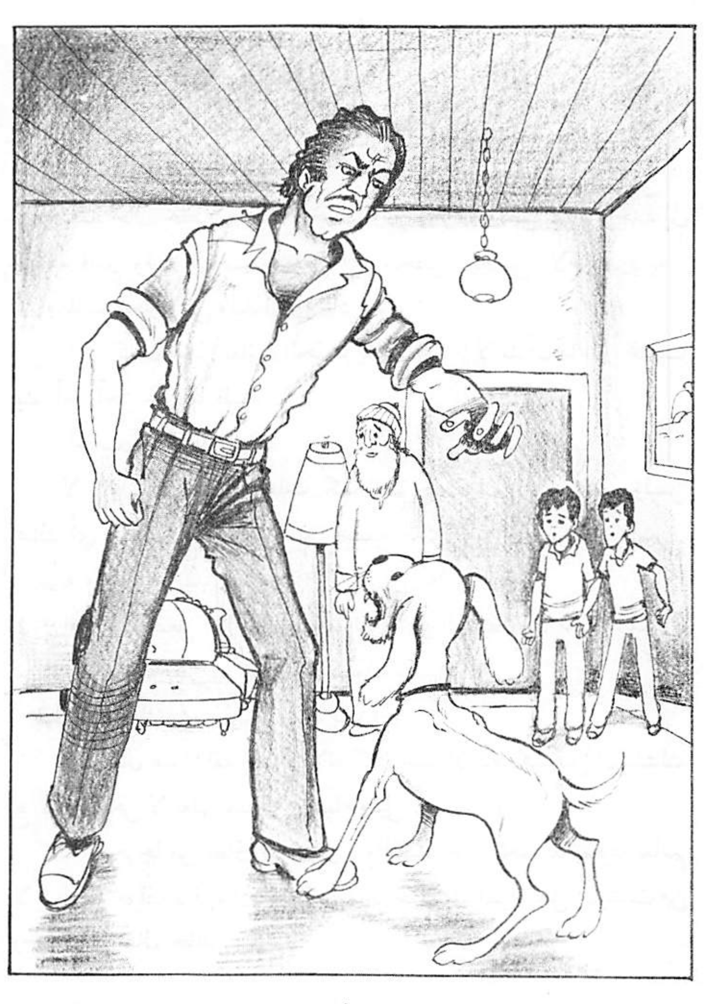
– لا بد أنه شم رائحتهما من قاسم . وهذا ما يثير قلقي .

قال وليد وقد بدأ يحس بالخوف على الرفيقين العزيزين :

– ماذا تعني يا خالد . ؟ هل تظن أن مكروهاً أصابهما ؟

هز خالد رأسه نفياً وقال :

– لا أظن يا وليد .. ولكن لا شك أنهما في مكان ما بهذه المزرعة ، وأن هذا الشاب قد احتك بهما منذ وقت قريب ، فعلقت به رائحتهما التي التقطها فينو فأثارت غضبه .



ما الذي أثار فينو ؟

قال وليد وقد استبد به القلق :

– هل تعني أنه اشتبك في صراع مع عصام مثلاً ؟

هز خالد رأسه نفياً وقال :

– لقد جال بخاطري هذا الاحتمال أول الأمر ، ولكن نظرة واحدة إلى جسامة قاسم وقوته الواضحة تجعل أي شخص يتحاشى الاصطدام به .

وبدت الحيرة على وليد الذي عاد يسأل :

– اذن كيف تفسر تعلق رائحتهما بقاسم هذا ؟ لا بد أن ما أثار غضب فينو أمر آخر غير ما ظننته .

أجاب خالد بإصرار :

– لا يا وليد .. إن فينو يملك كما تعلم حاسة شم قوية جداً ، وليس هناك أي احتمال يمكن به تفسير غضبه الذي قابل به شخص قاسم .

سأله وليد وقد نفد صبره :

– إذن ماذا نفعل . ؟ إذا كان ما تقول هو الحقيقة فإن معنى ذلك أن ليلى وأخاها في خطر .. فهل سنتركهما وننصرف ؟

نظر إليه خالد في غضب وقال بحدة :

– من قال هذ ا؟ لقد انصرفنالأنه كان علينا أن ننصرف قبل أن نشتبك مع قاسم ونحن لا نعلم بعد أين عصام وليلى .

كانا قد خرجا من نطاق الأشجار . والتفت خالد نحو الدار فإذا بقاسم لا يزال في موقفه يرقبهما كأنه لا يريد الدخول إلى المنزل قبل أن يتثبت من رحيلهما . فقال خالد :

سنذهب إلى العم سعيد ، وسنعلم منه أشياء كثيرة .
سأله وليد مستغرباً :
– وكيف تطمع في معرفة شيء منه بعد الاستقبال الفاتر الذي رأيناه منه ؟
أجابه خالد بثقة :
– نعم سنذهب إليه ، وسنطلب منه تفسيراً لهذه الأمور الغريبة . لا بد أن في الأمر سراً . وسوف نعرفه .
هز وليد رأسه في ضجر وعدم فهم وقال :
– أنا لا أفهم هذه المعميات الغامضة .. أي سر يخفيه العم سعيد ؟ ولماذا تعتقد أن في الأمر سراً .. أتريد رأيي ؟ أنا اعتقد أن كل ما فعلناه لم يكن له معنى .. ربما وجدنا ليلى وأخاها في منزل أبيهما الآن . وعندئذ تكون كل ظنوننا أوهاماً لم تحمل لنا إلا التعب وضياع الوقت .
ابتسم خالد لسذاجة تفكيره وقال له :
– لو فكرت بهدوء لوجدت أكثر من سبب يدفعنا إلى الظن بأن في الأمر شيئاً غير طبيعي .
لم يعلق وليد بشيء على هذا الكلام بينما استمر خالد يقول :
– لذلك سأذهب إليه أولاً قبل أن نعود إلى هذا المكان مرة أخرى .
تطلع إليه وليد بدهشة وسأله :
– وهل تفكر بالعودة إلى هنا مرة أخرى ؟
أجاب خالد بحزم وهدوء :
– نعم . إذا كنا نريد أن نصل إلى ليلى وعصام .

في منزل العم سعيد

راحت القسبا تقطع الطريق بسرعة معتدلة حاملة ركابها الذين سادهم الصمت والترقب . كان خالد غارقاً في التفكير ، أما وليد فقد انهمك في قيادة الدراجة دون أن يحاول الالتفات يمنة أو يسرة . حتى ركاب المقطورة فينو وسرور وفصيح لم يحاول أحدهم أن يأتي بأي حركة أو صوت .

ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت الضيعة من بعيد ، وأخذت المعالم تتضح شيئاً شيئاً ، إلى أن قال خالد :

– سنذهب مباشرة إلى المنزل . وأرجو أن أكون مخطئاً ويكون عصام وليلى هناك .

ولما وصلوا إلى المنزل تركوا دراجتهم أمام الباب ودخلوا مسرعين حيث كان ينتظرهم مشهد مؤلم تحققت فيه ظنونهم وتقطعت له قلوبهم من الحزن والألم .

كانت السيدة هيفاء أم عصام وليلى في حالة انهيار تام ، ودموعها تسيل بغزارة ، والسيد سعيد يحاول جاهداً التخفيف عنها .

وما كادت السيدة هيفاء يقع بصرها على خالد ووليد حتى ارتفع نحيبها وتعالت شهقاتها .

التفت السيد سعيد إليهما وهب من مكانه مذعوراً لمجيئهما المفاجئ ، وقال بصوت منفعل :

– ما الذي أتى بكما .. ؟ لماذا رجعتما . ؟ ألم أقل لكما إنهما بخير . ؟

لم يعبأ خالد بهذا الاستقبال الجاف الذي كان قد حسب حسابه ، وتقدم بهدوء إلى السيدة هيفاء يحاول تعزيتها ، فضمته هذه إلى صدرها في عنف وهي تنشج وتشرق بدموعها وتقول :

– خطفوهما يا خالد .. حبيبي عصام ، وحبيبتي ليلى .. خطفوهما .. ولن أراهما .

قاطعها زوجها قائلاً :

تمالكي نفسك يا هيفاء .. كل شيء سيتم على ما يرام .. إن بكاءك لن يرد الولدين .

وأحس خالد بالغضب يستبد به لكتمان الأمر عنه فقال :

– ولماذا لم تخبرنا بالأمر يا عمي عندما التقينا في الطريق ؟

قال السيد أبو عصام والألم يعصر فؤاده :

– لقد هددوني يا ولدي بقتل الولدين إذا أنا أخبرت أحداً باختطافهما .

قال خالد وقد هدأ غضبه وشعر بالاشفاق :

– لا بأس يا عمي .. ولكن أرجو أن تقص علينا ما حدث بكل دقة .. ان الوقت يمر بسرعة ولكل دقيقة ثمنها ..

استسلم السيد سعيد للأمر الواقع ، وقال والدموع تترقرق في عينيه :

– كنا ننتظر وصولهما ، ولما تأخرا واتصلت بك وعلمت أنهما خرجا من

المدينة في وقت مبكر ، قدرت أن عطلاً قد أصاب دراجتهما ، وأنهما في الطريق مقطوعين ، فأمرت بإعداد السيارة للبحث عنهما .

وقبل أن أغادر المنزل دق جرس الهاتف وكان المتحدث واحداً من الخاطفين ، وقال لي :

– إن ولديك في قبضة يدنا . وإذا فكرت بإبلاغ الشرطة أو سربت الخبر إلى أي شخص فلن تراهما أحياء مرة أخرى .

فسألته :

– ولكن لماذا .. ماذا فعل ولداي ؟

أجابني في قسوة وسخرية :

– لم يفعلا شيئاً . وسوف يلقيان منا معاملة حسنة إلى أن ترسل إلينا خمسة آلاف دينار قبل ثلاثة أيام . وإلا فلا تلومنَّ إلا نفسك .

وسكت السيد سعيد بعد أن سيطر عليه الانفعال وراحت دموعه تطفر من عينيه بغزارة . وتأثر وليد لهذا المنظر الحزين فراح يمسح دموعه التي أخذت تسيل من عينيه .

قال خالد الذي ظل متمالكاً أعصابه :

– هدئ روعك يا عم .. إن الأمر يحتاج إلى هدوء وتفكير جدي .. فأرجوك أن تستمر في سرد القصة .

قال السيد سعيد :

– هذا كل ما حدث يا ولدي ..

سأله خالد :

– وهل وعدت الخاطفين بشيء ؟
أجابه السيد سعيد :
– وهل كان بإمكاني رفض أي طلب لهم ؟ ليس أمامي إلا الخضوع لشروطهم وتأمين المبلغ الذي طلبوه .
سأله خالد :
– وكيف ستدفعه .. ؟ هل حددوا لك شكل التسليم أو مكانه . ؟
قال أبو عصام :
– لا .. لم يقولوا لي شيئاً عن هذا الموضوع .
قال خالد :
– إذن كيف سيكون الدفع ؟
أجاب الأب الحزين :
– قالوا إنهم سيتصلون بي ليخبروني بطريقة الدفع ومكانه . وها أنا ذا أنتظر هذه المخابرة لأدفع لهم .
قال وليد :
– ولكن كيف سيكون استلام عصام وليلى ؟
قال السيد سعيد :
– لا أدري أيضاً .. لم يقولوا شيئاً سوى أنهم يريدون مبلغ خمسة آلاف ..
قال وليد :
– إذا اتصلوا بك ثانية فقل لهم إننا لن ندفع قبل وصول الولدين سالمين .
قال خالد مبتسماً :

– وهل تنتظر منهم أن يقبلوا بهذا الشرط ؟

قال وليد مستغرباً سؤال خالد :

– ولماذا لا يقبلون . ؟ ألسنا ندفع نحن ما يطلبون . ؟

قال خالد وقد ضجر من سذاجة وليد :

– يا صاحبي ، لا يوجد عصابة خطف واحدة في العالم تقبل بتسليم ضحيتها قبل الحصول على الفدية المطلوبة . ولكن ذلك ليس مشكلة . المشكلة الحقيقية هي كيف نحصل منهم على ضمانات كافية لاستلام المخطوفين سالمين بعد دفع الفدية .

وسكت لحظة ثم عاد يقول :

– المهم الآن أن نكون على درجة عالية من الحذر واليقظة ، فهذه العصابات المخيفة تكون عادة خطرة ، وهي تجعل أهل ضحاياها تحت المراقبة لكيلا تقع في كمين يكون الشرطة قد أعدوه لهم بالاتفاق مع أهل الضحايا .

وهنا هتف السيد سعيد في صوت خافت كأنما يحدث نفسه :

– ها .. لا بد أنهما من أفراد العصابة إذن ؟

تدخل وليد في الحديث مرة ثانية وقال يسأل :

– من هما هذان ؟

أجاب السيد سعيد :

– رجلان طرقا الباب قبل وصولكما ، وحين فتحت لهما ادعيا أنهما ضلا الطريق إلى المدجنة الحكومية ، ورجوا مني أن أدلهما عليها .

قال وليد متحمساً :

– وهل تستطيع أن تذكر أوصافهما ؟

قال السيد سعيد :

– لم يكن في مظهرهما شيء خاص يميزهما . ومع ذلك فإني لاحظت أن أحدهما كان مصاباً بالزكام ، لأنه كان يعطس بين الفينة والأخرى .

قال خالد :

– لا أظن أن هناك أية فائدة من معرفة أوصافهما ، لأنني لا أعتقد أننا سنراهما مرة أخرى . وإذا حدث أن رأيناهما فلا يمكن توجيه أية تهمة ضدهما .

قال السيد سعيد :

– ولكني واثق الآن أنهما من أفراد العصابة .

قال خالد :

– قد تكون ثقتك صحيحة ، ولكن ما فائدة ذلك ؟

قال وليد محتجاً :

– كيف ذلك . ؟

أجابه خالد :

– إذا كانا من العصابة حقاً فلا شك أنهما أعضاء ثانويون فيها . والمهم عندنا الوصول إلى الزعيم .

وسكت لحظة ثم قال :

– ولكن ذلك ليس مشكلة على أية حال ، لأنهم سيسعون إلينا

بأنفسهم .. وعندما يحدث هذا سنعرف كيف نتعامل معهم .

ظهر القلق والخوف فجأة على أسارير السيد سعيد ، وقال :

– ماذا تعني يا خالد . ؟

قال خالد :

– طبعاً أعني مساعدة عصام وليلى للخلاص من براثن المجرمين .

قال السيد سعيد في جزع ظاهر :

– أرجوك يا ولدي . ! إن أية حركة من جانبنا قد تثير شكوك العصابة ويكون فيها القضاء على عصام وأخته .. إن هؤلاء القوم لا يعرفون معنى للشفقة .

قال خالد يطمئنه :

– لا تخش شيئاً يا عمي .. كن واثقاً أنني لن أفعل شيئاً يثير شكوكهم .. ثم إنهم لن يتوقعوا خطراً من جانبنا ، فنحن في نظرهم مجرد صبية لا خطر منهم .. وعلى هذا فإن اهتمامهم سيكون منصباً على رجال الشرطة فقط . وعلى كل حال فلن نظهر أمامهم زيادة في الحرص والاحتياط .

ولكن كل ذلك لم يكن له أثر في تهدئة مخاوف الوالد الملتاع الذي قال في ضراعة :

– لا يا خالد .. أرجوك .. إنني لا أستطيع المغامرة بحياة ولديّ .. لقد قبلت بدفع الفدية .. وسأكون سعيداً جداً إذا عاد إلي ولداي مقابل هذا المبلغ .

فكر خالد قليلاً ثم قال :

– إني أقدر ظروفك ولا شك .. ولكن لا بد من عمل شيء ضد هؤلاء المجرمين السفلة . إذ لا يجوز أن نتركهم يفوزون بالغنيمة وينجون من العقاب الذي يستحقونه . فهل تسمح لي بالعمل بعد وصول عصام وليلى سالمين ؟

أجاب الوالد الولهان :

– إفعل ما بدا لك ، ولكن ليس قبل عودة الولدين .

قال خالد :

– ثق أنني لن أتحرك إلا بعد رؤيتهما في المنزل هنا سالمين . ولكن ذلك يحتاج إلى التمهيد منذ الآن :

قال السيد سعيد وقد عاوده القلق :

– ماذا تعني ؟

قال خالد :

– لا تخش شيئاً .. كل ما أطلبه منك هو أن تصحب فينو معك حين لقائك بهم . ولست أظن أن وجود كلب معك سيثير مخاوفهم ، ويدعوهم إلى ارتكاب عمل ضد رهائنهم .

قال السيد سعيد وهو لا يفهم غرض خالد !

– وماذا تنتظر من كلبك أن يفعل في هذه القضية ؟

قال خالد :

– كل ما انتظره منه هو أن يحتك بأحد أفراد العصابة ، ويشم رائحته ، ليرشدنا إلى مكان وجوده عندما نبدأ الحركة .

قال السيد سعيد :

– لا بأس .. سأفعل ما تريد .. ولكن لن أسمح لكم بأي عمل قبل عودة الولدين سالمين .

قال خالد :

– اطمئن من هذه الناحية . فأنا لا أقل عنك حرصاً على سلامتهما .

قال السيد سعيد :

– اتفقنا إذن .. ولكن هل تضمن أن فينو لن يحاول مهاجمتهم وإيذاءهم ؟

قال خالد مؤكداً :

اترك هذا الأمر لي .. اني أعرف كيف ألقن فينو ما يجب عليه أن يفعله .. وسينفذ هو كل ما أطلبه منه .. إنه مدرب جيداً على أمثال هذه المهمات .

وهنا قالت السيدة هيفاء التي ظلت حتى الآن صامتة :

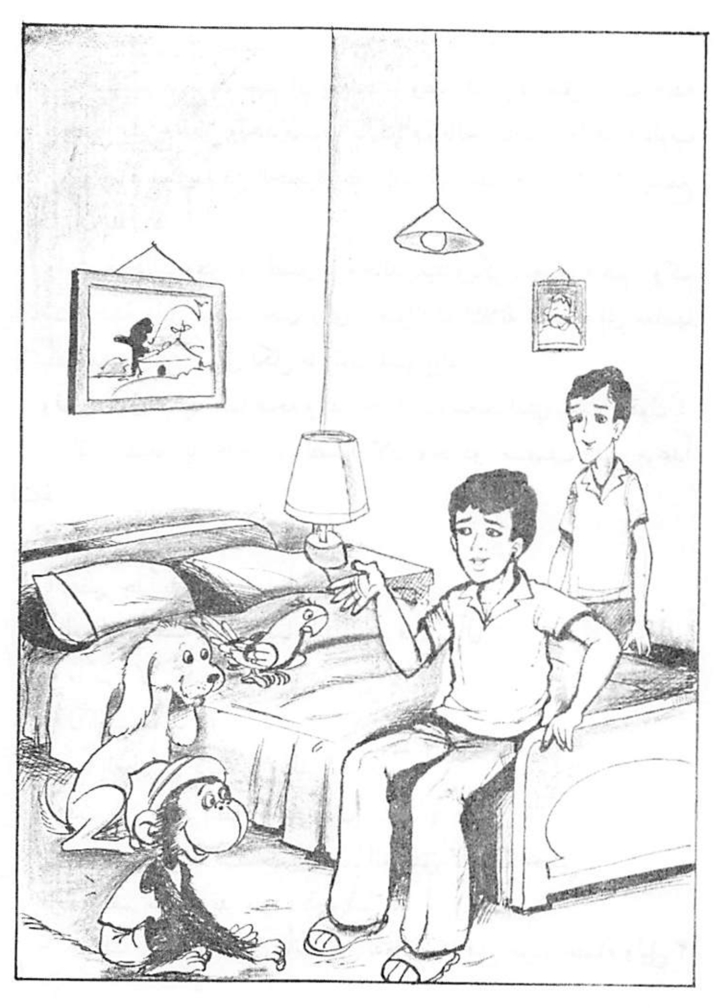
– سعيد .. لماذا لم يتصلوا بنا حتى الآن ؟

قال خالد يطمئنها :

– لا تقلقي يا خالتي .. لا بد أنهم سيفعلون ذلك قريباً .. إنهم ينتظرون فقط الفرصة المناسبة .

واستأذن خالد في الإنصراف إلى غرفة أخرى لينال قسطاً من الراحة بعد ليلة قضاها هو ووليد من غير نوم .

ولم يكن يريد النوم حقاً .. كل ما كان يبغيه هو الاختلاء بفينو وسرور



توزيع المهمات !

وفصيح ليلقنهم ما يريد منهم أن يفعلوه ، ولهذا فما كاد يغلق الباب خلفه حتى مضى يشرح لكل واحد منهم ، بالكلام وبالحركات ، ما هو مطلوب منه ، ووليد قابع في ركن الحجرة ينظر إليه غير مصدق أن شيئاً مما يسمع يمكن أن ينفذوه .

واستغرق ذلك وقتاً غير قصير ، وخالد يعيد ويكرر تعليماته لهم . وكم كانت دهشة وليد عظيمة حينما رأى الحيوانات الثلاثة تنصت إلى معلمها بانتباه شديد ووعي عميق لكل ما كان يلقنها إياه .

وفجأة طرق الباب فلما فتحه وليد وجد السيد سعيد الذي بادره بالقول :

– لقد اتصلوا يا خالد .. اتصلوا الآن وحددوا منتصف الليل موعداً للقاء .

قفز خالد فرحاً وقال :

– عظيم جداً يا عمي .. عظيم جداً . !

تطلع إليه بدهشة شاركه فيها وليد الذي قال يسأل :

– ما سر كل هذا الفرح . ؟

وقال العم سعيد :

– وما العظيم في ذلك يا خالد ؟

أبرقت عينا خالد بنظرة وعيد وقال :

– العظيم هو موعد منتصف الليل .. إنه يتفق تماماً مع خطتي .

قاطعه العم سعيد وقد عاوده الخوف :

– خطتك .. ؟ ألم تعدني بأنك لن تفعل شيئاً قبل عودة عصام وليلى ؟

قال خالد :

– بلى ، لن أفعل شيئاً قبل عودتهما .. الذي أعنيه ان اختيار العصابة لهذا الوقت المتأخر سيساعد كلاً من سرور وفصيح على تأدية مهامهما .

تبادل السيد سعيد مع وليد نظرة تنطق بالشك ، وقال بارتياب واضح :

– سرور . ؟ فصيح . ؟ ماذا تقول يا ولدي . ؟ هل الأمر هين في نظرك إلى حد الاعتماد في انجازه على قرد وببغاء ؟ لا يا ولدي .. دع هذا الأمر للمختصين من رجال الشرطة . أما حيواناتك فاستخدمها في مغامرة أخرى لا يكون فيها عصام وليلى مهددين بالخطر .

تنهد خالد يائساً من اقناع العم سعيد ، ولكنه تمالك أعصابه وراح يشرح له الأمر :

– إن ما سيقومون به أمر مدروس جيداً .. وهم مدربون على تنفيذه تدريباً قوياً . ففينو سيقودنا إلى مقر العصابة مهما كان بعيداً .. أما سرور وفصيح فلن يظهرا أمام أحد من أعضاء العصابة إلا بعد أن نتحرك نحن .. ولن يحدث هذا إلا بعد عودة الرهينتين .. فما الخطر في ذلك . ؟

بدا الاقتناع على وجه العم سعيد عندما استرسل خالد راجياً :

– أرجوك يا عمي سعيد . ! لا تضيع من يدنا فرصة انزال العقاب العادل بهذه العصابة الإجرامية ..

أجاب العم سعيد :

– افعل ما يحلو لك يا خالد .. كل ما أطلبه منك ألاّ تثير شكوكهم قبل انقاذ عصام وليلى .

قال خالد مؤكداً :

– لا تخش شيئاً يا عمي .. وأعدك أن رجال العصابة سيسلمون إلى الشرطة لينالوا ما يستحقونه من عقاب .. والمرجو الآن اعداد الأمر لاستقبالهم .

نظر العم سعيد إليه بامعان وقال :

– ماذا تعني يا خالد ؟ أنا وحدي الذي سأستقبلهم ..

أومأ خالد برأسه وقال :

– أنا لم أقل أني سأكون معك في استقبالهم .. ولكني أعني أن نقوم بشيء يجعل هذا اللقاء مفيداً لنا في المستقبل .

قال العم سعيد : وكيف . ؟

أجاب خالد :

– لو أضأنا أنوار الحديقة والبوابة ..

قال العم :

– وماذا تبغي من ذلك ؟

قال خالد :

– لا شيء أكثر من اتاحة الفرصة لك لعلك تتعرف على رسول العصابة ، أو ترى فيه علامة تساعد على الإيقاع بها فيما بعد .

قال العم سعيد :

لا مانع من ذلك .

شكره خالد وأسرع إلى وليد وهمس في أذنه ببضع كلمات قام هذا على أثرها وراح يعد نفسه للعمل الذي كلف به .

رسول منتصف الليل

كان الوقت يمر بطيئاً . وعقارب الساعة تبدو وكأنها لا تغير أمكنتها . وكان العم سعيد جالساً في الشرفة ، وأمامه منضدة صغيرة وضع عليها لفافة صغيرة ربطت باحكام على مبلغ الفدية المطلوبة ، وتحت قدميه ربض فينو وكله يقظة وتحفز .

أما خالد ووليد فقد اختفيا تماماً ، وكذلك سرور وفصيح . ولو رفع العم سعيد عينيه إلى الغصن المتدلي من الشجرة القائمة عند مدخل الحديقة لشاهدهما وقد جثما فوقه في صمت وسكون .. لقد كانا أيضاً ينتظران رسول منتصف الليل .

وازدادت أعصاب العم سعيد توتراً وهو يراقب عقارب ساعة معصمه .. لقد أزفت الساعة ، وحانت اللحظة الحاسمة ، فتلفت حوله وكأنه يبحث عن معين يقف إلى جانبه في هذه اللحظة الخطيرة .

وقبل أن يسمع صوت محرك السيارة القادمة رأى نورها القوي يسطع مبدداً ظلام الليل فوق الطريق ، ومؤذناً بأنهم قادمون .

بعد لحظات توقفت سيارة سوداء أمام باب الحديقة ، ثم أطفئ محركها وساد صمت غريب شمل كل شيء . وبقي العم سعيد في مكانه لا يقوى

على الحركة ، كما ظل ركاب السيارة في داخلها لا يبرحونها .

والظاهر أن ركاب السيارة استبطؤوا مجيء العم سعيد إليهم ، إذ فتح باب السيارة ونزل منها رجل في ملابس داكنة ، وصفق الباب خلفه بقوة كأنما يريد أن يُسمع سكان المنزل ويشعرهم بوصوله . وعندئذ هب العم سعيد من مكانه مسرعاً ، وهبط الدرجات القليلة في خطوات متعثرة ، وأسرع إلى البوابة يفتحها ليصير وجهاً لوجه أمام المجرم الخطير الذي كان يغطي وجهه بقناع أسود .

قال الرجل المقنع :

– هل أعددت المطلوب . ؟

أجابه العم سعيد :

– نعم .. ولكن أين الولدان . ؟

أجابه الرجل :

– هل تظنني من السذاجة بحيث أحضرهما معي . ؟ من أدراني أنك لم تبلغ عنا الشرطة ؟ إن في السيارة رجلين قد صوبا نحوك أسلحتهما تحسباً لكل عمل طائش قد تفعله .

قاطعه العم بصوت ضارع :

– أقسم لك اني لم أبلغ عنكم أحداً .. اني لم أفعل إلا ما اتفقنا عليه .

أجابه الرجل :

– أعلم ذلك ، ولكن لا بد من اتخاذ الاحتياطات الضرورية .

قال الوالد الجزع :

- ولكن أين ولداي . ؟ ومتى تعيدهما إلي ؟

أجابه بصوت قاطع :

- ستجدهما هنا بعد ساعات . ولكني أحذرك منذ الآن .. إذا حاولت أية محاولة للغدر بنا ، أو أفشيت شيئاً من كل ما حدث ، فسوف نعود إليك مرة أخرى ، ولن تلقى حينذاك أية رحمة .

وفي هذه الأثناء اقترب فينو وهو يهز ذنبه علامة الترحيب ، وأخذ يتشمم الرجل الذي تراجع خطوة وهو يقول :

- أبعد هذا الكلب من هنا .

أسرع العم سعيد إلى فينو ينهره ، فاستدار هذا إلى الداخل ولكن بعد أن علقت بأنفه رائحة المجرم التي لا يمكن أن ينساها عدة أيام .

ومد السيد سعيد يده باللفافة إلى الرجل المقنع الذي تناولها وفضها وراح يحصي المبلغ الذي كان بها .

قال السيد سعيد :

- إنه المبلغ الذي طلبتموه .. أرجو أن تكونوا أمناء معي كما كنت أميناً معكم .

ولم يجبه المجرم لأنه كان مشغولاً باحصاء النقود . وانتهز سرور فرصة انشغال المجرم بالنقود فقفز من فوق غصنه إلى الأرض في سرعة وخفة عجيبتين ، ثم تعلق بصندوق السيارة الخلفي دون أن يشعر به أحد إلا خالد الذي كان يراقب كل شيء من خلف زجاج احدى نوافذ البيت .

ولما انتهى الرجل من إحصاء النقود أودعها جيب سترته الداخلية ، وتنهد

بارتياح وقال وهو يهم بالعودة إلى السيارة :

- المبلغ مضبوط .. الزعيم يهديك السلام .. وأنا أشكرك نيابة عنه .

ولم يكن العم يهمه شيء إلا أن يعرف موعد عودة الولدين . وكاد لفرط قلقه ولهفته أن يمسك بالرجل ، لولا أن هذا قال يطمئنه :

- سيصلان إلى هنا قبل بزوغ الفجر .. إطمئن .

اكتفى العم سعيد بهذا الوعد وصحب الرسول المجرم حتى باب السيارة التي فتحها المجرم وجلس إلى جوار السائق لتنطلق به في أقصى سرعة .

وفي اللحظة نفسها انطلق فصيح من مكمنه فوق غصن الشجرة وراح يصفق بجناحيه بكل ما أوتي من قوة ليلحق بالسيارة المسرعة .

والظاهر أن سرعة السيارة كانت فوق طاقته فراح يسب ويلعن :

- على مهلك يا حمار .. على مهلك يا حمار .. يخرب بيتك على مهلك .

واستدار العم سعيد ودخل المنزل حيث كان خالد ووليد في انتظاره .

كان خالد في قمة نشاطه ينطق وجهه بالعزم والإصرار ، وتلتمع في عينيه نظرات التحدي التي يعرفها وليد جيداً كلما أحدق الخطر به وتعقدت الظروف . كان وليد يعرف أنه إذا عزم خالد على شيء فلا بد أن ينفذه .

ودخل العم سعيد الغرفة وهو يقول :

- لقد وعدني باعادة الولدين قبل بزوغ الفجر .

قال خالد بهدوء :

- كل ما نرجوه هو أن يبر بوعده .

حملق العم سعيد ببلاهة في وجه خالد وقال :

– أهناك احتمال في ألا يفي بوعده ؟ اني لم أفعل حتى الآن إلا كل شيء يرضيهم .. دفعت لهم ما طلبوا من مال ، ولم أبلغ عنهم الشرطة .

قال خالد يطمئنه :

عليناً دائماً أن نتوقع كل شيء من أمثال هؤلاء المجرمين .

تهالك العم سعيد على أقرب مقعد إليه . ووضع رأسه بين كفيه وأطرق يحاول اخفاء الدموع التي راحت تترقرق في عينيه . وأقبل عليه خالد يواسيه قائلاً :

– عمي سعيد .. لقد وعدوك بعودتهما قبل الفجر .. وسيحدث هذا بإذن الله . ولكني أود أن أسألك سؤالاً بسيطاً .

رفع العم الحزين رأسه ونظر إليه في شك وقال :

– سل ما تشاء .

سكت خالد لحظة ثم قال :

– هل كان أحد غيرك وغير خالتي هيفاء يعلم بمجيء عصام وليلى .. أعني هل تحدثت إلى أحد بموعد وصولهما إلى المزرعة ؟

فكر العم قليلاً ثم قال :

لا . لا أظن أني تحدثت إلى أحد بهذا الموضوع .

وسكت برهة ثم عاد يقول :

– آه .. تذكرت . قبل حضورهما بيوم واحد وصلتني برقية منهما . وكنت حينئذ ذاهباً إلى المصرف لكي أودع فيه مبلغاً من المال . فما كاد ساعي البريد يراني حتى أقبل عليَّ وسلمني البرقية وهو سعيد للمصادفة التي وفرت

عليه رحلة طويلة إلى المزرعة .

بدا الاهتمام على وجه خالد وقال :

- وقرأت البرقية طبعاً وعلمت ما فيها .. اكنت حينئذ وحدك ؟

عاد الرجل يفكر ليتذكر ثم قال :

- كنت عندئذ في مكتب وكيل المصرف .

قال خالد يحثه على التذكر :

- أرجوك يا عمي .. تذكر جيداً من كان في الحجرة غير وكيل المصرف ؟

قال العم سعيد :

- كان في الحجرة شخصان أو ثلاثة من العملاء ، والصراف الذي سلمته النقود ليودعها لحسابي ، وكان هناك خادم قدم للموجودين القهوة .

سكت خالد قليلاً ثم قال متابعاً :

- أتعرف أحداً من هؤلاء العملاء ؟ وهل أحصى الصراف المال أمامك وفي وجودهم ؟

أجابه دون تردد :

- لا أعرف منهم غير السيد « نافع كرم » . وهو صاحب بستان فاكهة . وقد تبادلت معه بضع كلمات من نوع المجاملة ريثما ينتهي الصراف من عد المبلغ .

قال خالد :

- أخبرني من يكون نافع كرم هذا ؟

أجاب العم سعيد :

– ألم أقل لك إنه صاحب بستان للفاكهة . ؟ وبستانه هذا يقع على الطريق الترابي الواصل بين مزرعتنا وبين الطريق العام . وهو شيخ متقدم في السن غير متزوج ، ويسكن وحده في منزله الكبير المقام داخل بستانه .. ولا يختلط بالناس ، ويعيش في عزلة تكاد تكون تامة .

سأله خالد :

– أهو صاحب اللحية البيضاء المدببة ؟

نظر إليه السيد سعيد بدهشة وقال :

– نعم .. ولكن هل تعرفه ؟

قال خالد :

– سأخبرك فيما بعد .. ولكن قل لي هل قمت يوماً بزيارة منزل هذا الشيخ ؟

أجابه العم سعيد :

– نعم .. زرته مرتين : الأولى كانت إثر شرائه للبستان ، والثانية كانت لعيادته عندما كان مريضاً .

قال خالد يريد الاستيثاق :

– ألا يعيش معه أحد في منزله ؟

أومأ العم سعيد برأسه قائلاً :

– تقريباً .. فهو شيخ عزب .. ولكن يقال ان له ابن أخ يساكنه المنزل .. ولكني لم أره في كلتا الزيارتين .

وقبل أن يسترسل خالد في أسئلته قال العم سعيد :

– ما كل هذه الأسئلة يا خالد . ؟ ما الذي ترمي إليه من ورائها ؟

ابتسم خالد بغموض وقال :

– لا شيء يا عمي .. كل ما في الأمر أنني أود أن نعرف كل ما يمكن معرفته عمن تحيط بهم الشبهات .

قال العم سعيد :

– ان هذا الرجل الشيخ هو أبعد الناس عن الشبهة .

قال خالد :

– أنا لا أشتبه به ، ولكني اشتبه بابن أخيه هذا .

وهنا دخلت السيدة هيفاء إلى الحجرة فابتدرت زوجها قائلة :

– ما الخبر يا سعيد ؟ ألم تقابل الرجل ؟ ماذا قال لك ؟ متى يعود الصبيان ؟

أجابها متظاهراً بالهدوء :

– قبل طلوع الفجر سيكونان هنا .

قالت بصوت متهدج تكاد تنفجر بالبكاء :

ولكني سمعت كلامك مع خالد تتناقشان .. ما الخبر ؟ صارحوني بالحقيقة .

ثم التفتت إلى خالد وقالت :

– خالد ، أرجوك صارحني بالحقيقة .. هل سيعودان إليّ مرة أخرى أم لا ؟ أخبرني يا ولدي هل سيعود حبيباك عصام وليلى ؟

ولم يستطع وليد أن يتحمل قسوة الموقف فأرخى العنان لعواطفه وسالت دموعه على خديه في صمت . أما خالد فقد تمالك نفسه وقال في هدوء وثبات :

– سيعودان .. اطمئني يا خالتي .. سيعودان قبل الفجر شاء المختطفون ذلك أم لم يشاؤوا .

وأدرك وليد أن خالداً نوى في نفسه شيئاً . ذلك لعلمه أنه لا يرسل الكلام جزافاً ، فهو إذا وعد فلا بد أن يفي بوعده مهما كلفه ذلك .

وقال خالد متابعاً :

– تفاءلوا بالخير تجدوه .. علينا أن ننتظر حتى الفجر .

ونظر إلى وليد نظرة ذات مغزى فقال هذا :

– أنا واثق أنهما سيعودان في الموعد يا خالتي .. والآن خذي عمي واذهبا إلى فراشكما لترتاحا .. إن انتظاركما هنا لن يغير من الأمر شيئاً .

كان الوالدان في حالة ارهاق شديد حقاً بعد ثلاثين ساعة قضياها بغير نوم ولا طعام معرضين لأنواع من الصدمات العصبية والعاطفية . ولهذا فقد قبلت السيدة هيفاء نصيحة وليد ، وأخذت زوجها من يده ، واتجهت به نحو الباب .

قال الزوج وهو يجر ساقيه جراً :

– سنعمل بنصيحتك يا وليد . وأرجو أن يحقق الله أملنا وتنتهي هذه الأزمة العصيبة بسلام .

وما كاد الباب يغلق خلفهما حتى أمسك خالد بذراع وليد وقال له

هامساً :

– اسرع إلى الڤسبا .. سنرحل حالاً .

وخرجا يتبعهما فينو ، فلما صارا في الحديقة قال وليد :

– إلى أين يا خالد ؟

أجاب خالد :

– إلى حيث نجد الأسيرين .. هيا يا وليد أرجوك .

وانطلقت الڤسبا براكبيها الثلاثة مخترقة الحديقة ثم البوابة . فلما وصلوا إلى الطريق قال وليد يسأل :

– يميناً أم شمالاً ؟

أجابه خالد بهدوء :

– لا هذا ولا ذاك .. اطفئ المحرك وانتظر .

وعندما انقطع صوت المحرك قال وليد :

– ماذا ننتظر ؟

أجابه خالد :

– ننتظر المرشد الذي سيقودنا إلى حيث نجد العصابة .

قال وليد :

– ومن سيكون مرشدنا هذا ؟ سرور ؟ ؟

ولم يكن وليد يعلم بأمر فصيح ، ولا بالمهمة التي قام بها . كل ما كان يعرفه هو أن المرشد سيكون القرد الذي تعلق بالسيارة من خلفها . لذلك كانت دهشته كبيرة عندما سمع صوت فصيح يهتف من أعماق الظلام :

– خالد .. خالد ..

وهنا أضاء خالد مصباحه الكهربائي لإرشاد فصيح إلى مكانهما . فلما حط هذا على كتفه رحب به قائلاً :

– فصيح .. أهلاً بك .. فصيح رائع . !

صاح الطائر الذكي :

– ليلى .. عصام .. هناك .. هناك ..

لمعت عينا خالد ببريق الفرح ، وقال يسأل طائره :

– أين هما يا فصيح . ؟ أين هما ! ؟

وعاد الطائر يردد :

– هناك .. هناك .. عصام .. ليلى .. هناك .

قال خالد :

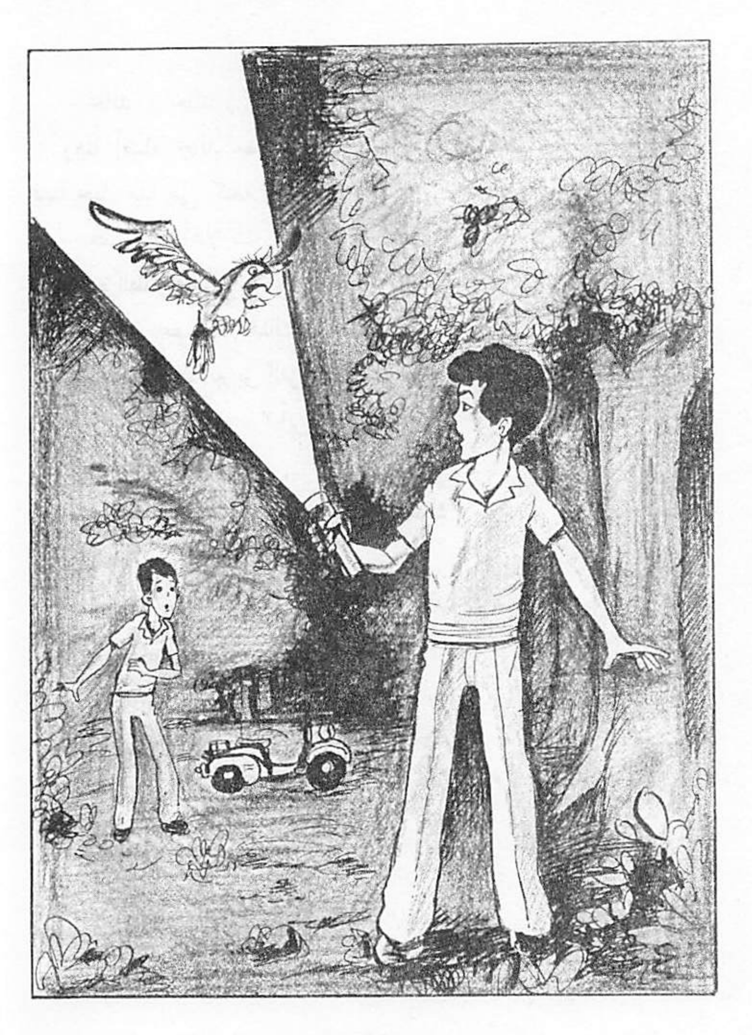
– خذنا إليهم يا فصيح .. خذنا إلى مكانهم .

أخذ فصيح يردد :

– مكانهم .. مكانهم ..

ثم صفق بجناحيه وطار . وعندئذ قال خالد :

– أسرع يا وليد وتعقب الطائر .. إنه رآهما وسوف يقودنا إلى مكانهما .



عاد الببغاء بالخبر ..

نجدة غير منتظرة

جلست ليلى ساكنة وإلى جوارها عصام ينظران من خلال النافذة إلى أسداف الظلام الذي كان مسيطراً في الخارج . كانت النافذة تقع في الطابق الثاني من المنزل ، وكانت مسلحة بقضبان حديدية متينة . كما كان باب الغرفة مقفلاً عليهما من الخارج . ولم يكن السجينان قد شاهدا أحداً في سجنهما غير الحارس الذي كان يدخل عليهما بين الفينة والأخرى مخفياً وجهه خلف قناع سميك ليأتيهما بالطعام أو الماء ، أو ليسألهما إن كانا في حاجة إلى شيء .

قالت ليلى :

– إلى متى سنبقى في هذا السجن الرهيب ؟

أجابها عصام :

– ألم تسمعي من هذا الشبح الملثم أن الأمر متوقف على دفع الفدية التي طلبوها من بابا ؟

اغرورقت عيناها بالدموع شفقة على أبويها وقالت :

– ترى كيف حال ماما الآن ؟ اني خائفة عليها من هذه الأزمة القاسية .

وقطع عليها الحديث صوت المفتاح يدور في القفل ، ثم ظهور الحارس

الملثم الذي قال :

– لقد ذهبوا لاحضار المال . وإذا دفع والدكما كما وعد فسنطلق سراحكما حالاً .. أما إذا ..

وسكت عن الكلام تاركاً لبريق عينيه تكملة الوعيد ، فقال عصام بتحد :

– أما ماذا ؟ تريد أن تقول إذا لم يدفع والدنا . ؟ أليس كذلك .. ؟ ولكن هب أن والدي لم يدفع فماذا بامكانكم أن تفعلوا ؟

أجابه الحارس :

– ستموتان بغير شك .. ولكن اطمئنا فليس من المعقول أن يتخلى أبوكما عنكما .

قال عصام في غيظ :

– بل اتمنى أن يتخلى عنا لأرى ماذا يمكنكم أن تفعلوا أيها الجبناء .

انقبضت يد الحارس في حركة تهديد وقال من بين أسنانه :

– أيها الوغد .. لو كان الأمر إلي لقتلتك الآن .

ورمى نحو الأسيرين بنظرة ملتهبة غادر بعدها الحجرة وصفق الباب خلفه بعنف . وفي اللحظة نفسها سمع الأسيران هدير محرك سيارة مقبلة ، ثم سمعاها تتوقف وتفتح أبوابها ثم تنصفق .

قالت ليلى :

– لقد عادوا يا عصام .. انني أحس بالخوف أول مرة .

ولم يكن عصام أقل خوفاً من اخته ، ولكنه تجلد وتظاهر بعدم الاكتراث

وقال :

– تخافين . ؟ ! لا يا ليلى . ! لم أكن أتوقع ذلك منك أبداً ..

وفجأة فتح الباب ثانية وظهر منه الحارس يتقدمه شخص آخر ملثم أيضاً .

وفي اللحظة نفسها سمع الجميع صوتاً منبعثاً من النافذة . لكنهم لم يعيروه أي اهتمام . لقد كان صوت خفقان أجنحة فصيح وهو يحاول أن يتعلق بقضبان النافذة .

قال الرجل الملثم الجديد :

– لقد دفع والدكما الفدية . وبما أننا ناس شرفاء نحترم كلمتنا فقد قررنا الإفراج عنكما .

قال عصام بهدوء :

– نشكركم على أي حال .

والتفت إلى شقيقته وقال :

– هيا بنا يا ليلى ..

سأله الرجل في برود :

– إلى أين .. ؟

أجابه عصام :

– ننصرف .. ألم تقل ذلك الآن ؟

أجابه الرجل :

– نعم .. لقد قررنا الافراج عنكما . ولكن متى ؟ هذا ما لم نحدده بعد .

استبد الغضب بعصام ، وأدرك أن الرجل يسخر منهما فقال :

– ماذا تعني ؟ ألم تقبضوا الفدية ؟ فما الداعي إلى بقائنا هنا ؟

أجابه الرجل :

– إن قرار الإفراج عنكما يعود إلى الزعيم الذي سيصل بعد قليل .

وفجأة اندفع عصام نحو الرجل وسدد إلى فكه لكمة قوية أطاحت باللثام عن وجهه فندت عنه صيحة غضب ، وانقض على عصام يعاونه زميله وانهالا عليه صفعاً ولكماً فأطلقت ليلى صيحة فزع أوقفت بها المعركة غير المتكافئة .

قال الرجل وشرر الغضب يتطاير من عينيه :

– لقد حكمت على نفسك وعلى اختك بالموت أيها المنكود .. لقد رأيتما وجهي فلا بد من موتكما .

وزلقت رجل فصيح عن القضيب الذي كان يمسك به ، فعاد يخفق بجناحيه حتى استقر مرة ثانية .

قال المجرم الحاسر الوجه :

– ما هذا . ؟ هل سمعت شيئاً ؟

أجابه رفيقه :

– صوت جناحي طائر .. لا بد أنها بومة أفزعتها أصواتنا ففرت هاربة .

وكأن التفسير قد اقنعه فالتفت إلى عصام قائلاً :

– سأعود إليكما حالاً .

وأطلق ضحكة شيطانية اقشعر لها بدن ليلى التي قالت :

– فلتذهب إلى جهنم أيها الوغد الجبان . !

وكاد يعود إليها ليؤدبها لولا أنه سمع صوتاً أجش من أسفل الدار يصيح :

– أين أنتما أيها الحيوانان . ؟ اهبطا إلى هنا حالاً ..

همس المجرم الذي لا يزال ملثماً :

– إنه الزعيم .. لقد وصل ..

وبعد أن ذهب المجرمان التفتت ليلى إلى أخيها وقالت :

– عصام .. هل أنت بخير ؟

أجابها وهو يحاول الابتسام :

– طبعاً بخير ..

قالت في حزن :

– ما كنت في حاجة إلى هذا التهور والاندفاع يا عصام .. لقد وضعتنا تحت الخطر المحقق بعد أن هتكت قناعه عن وجهه الكريه .

وفجأة سمعا صوت المفتاح يدور في القفل ثانية ، ولكن ببطء وحذر هذه المرة . ثم فتح الباب بهدوء زائد وظهر من خلفه وجه سرور .

هتفت ليلى بفرح :

– سرور . ؟

وأسرع القرد الذكي إليهما واحتضنهما واحداً بعد الآخر ، ثم جذبهما من أيديهما كأنه يدفعهما إلى الهرب . ولم ينتظرا أكثر من ذلك ، فتبعاه وهما واثقان أن الفرقة قد حضرت لإنقاذهما .

سارا خلف سرور في خطوات خفيفة . وسمعا حواراً يجري في الصالة أسفل الدرج بين زعيم العصابة ورجاله .

قال الزعيم :

- أيها الحيوان ، لقد عرضتنا جميعاً للخطر .

أجابه الرجل في خوف :

- لا خطر أيها الزعيم إذا قتلناهما وتخلصنا منهما .

قال الزعيم ذو الصوت الأجش :

- هكذا اذن .. بهذه البساطة تقتلهما أيها الغبي ؟ وهل تظن أن أباهما سيسكت على ذلك ؟

وسكت الرجل فعاد الزعيم يقول :

- عليك أن تختفي من كل هذه المنطقة وإلى الأبد .

وانقطع الحوار . ثم سمعا أصوات أقدام تبتعد . ثم ساد الصمت والسكون .

همس عصام في أذن أخته :

- هيا وبسرعة .

وخلعا نعالهما وهبطا الدرج الخشبي بسرعة وحذر ونظرا إلى الطابق الأسفل . لم يكن هناك أحد ، فواصلا الهبوط وسرور يتقدمهما . واجتاز الجميع الصالة ، ثم فتحوا الباب وتسللوا إلى الخارج .

وعندما صاروا في الطريق صاح عصام فرحاً :

- يا لله يا ليلى ! هذا الطريق نعرفه .. إنه الطريق المؤدي إلى منزل جدي .. هيا نذهب إلى بيت جدي .

وانطلقوا يعدون بكل قواهم دون أن يلتفتوا إلى الخلف حتى وصلوا إلى

منزل الجد فاندفعوا إلى الحديقة ثم انزووا وراء حاجزها ليلتقطوا أنفاسهم المبهورة .

قالت ليلى بفرح :

– الحمد لله يا عصام لقد نجونا .

أجابها وهو يتفحص الدار الهادئة باستغراب :

– إن كل شيء ، هادئ في الدار .. يظهر أنه لا أحد فيها .. ربما لأنهم نقلوا جدي إلى منزل بابا .. ولكن هذا لن يمنعنا من الاختباء فيها .. هيا أسرعي خلفي .

وانطلق مسرعاً فدار حول المنزل وقفز في سرعة وخفة فوق سطح التنور الذي يعرفه جيداً ، فأصبح قريباً من الشرفة . ثم تسلق ما بقي من مسافة بسهولة كما كان يفعل دائماً وهو صغير ، وبعد لحظة كان في الشرفة يعالج بابها وأخته خلفه .

وبعد معالجة بسيطة استجاب باب الشرفة ليده فإذا هو مفتوح . فدخل هو وأخته وسرور ، ثم اغلقوا الباب خلفهم .

تنفس بارتياح وقال :

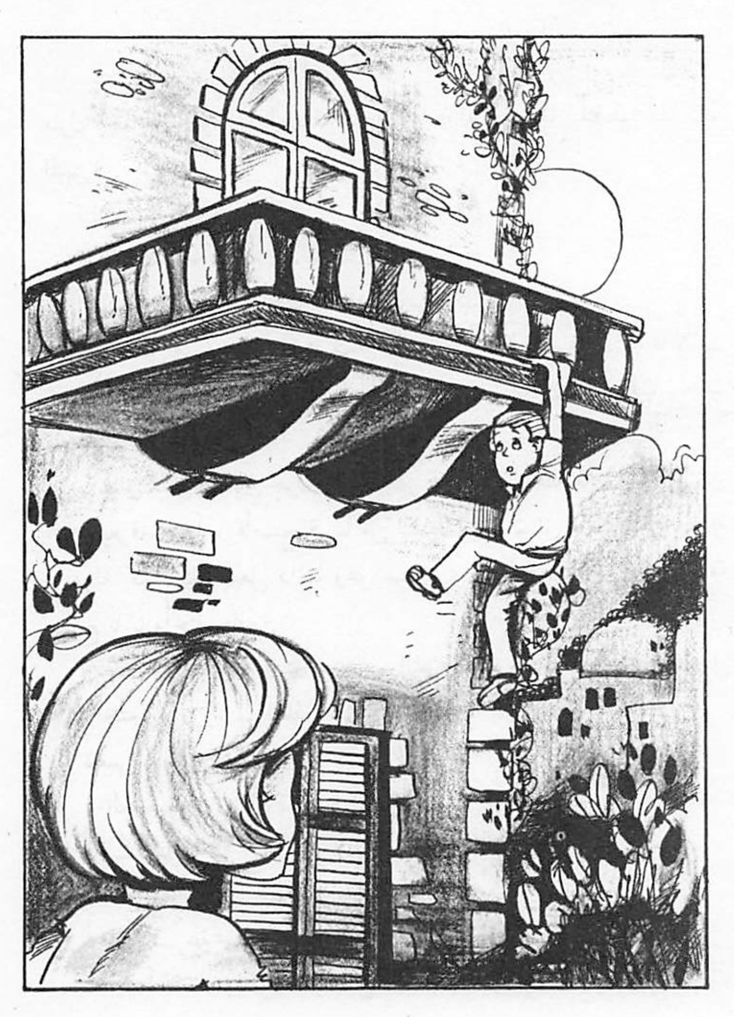
– الحمد لله . ! الآن نستطيع أن نقول نجونا حقاً .

قالت ليلى :

– هل نبقى هنا يا عصام ؟

أجابها بسرعة :

– طبعاً لا .. ولكن لا بد من البقاء فيه فترة إلى أن يخف الطلب ،



ودخل الغرفة من الشرفة ..

وعندئـذ نخرج من هنا إلى بيتنا .

قالت ليلى :

– ولكن لا بد أن القلق سيستبد بأهلنا وبخالد ووليد ، فهم الآن يبحثون عنا ولا شك .

أجابها وقد تذكر :

– هذا صحيح .. اذن يمكن أن يذهب سرور ويعلمهم بمكاننا .

وكأنما فهم سرور كلام عصام ، إذ ما كاد يسمع منه آخر كلمة حتى صفق بيديه طرباً وتركهما وانطلق يعدو في الظلام .



العصابة

توقفت القسبا بخالد ووليد أمام المنزل ، فقفزا منها يسبقهما فينو الذي عثر على الرائحة التي ملأت خياشيمه ، فأحنى رأسه يتشمم الأرض وسار قدماً مخترقاً البوابة وهما خلفه ، وفصيح يردد :

– فوق يا خالد .. فوق يا خالد ..

قال خالد شاكاً :

– هل جن فصيح ؟

وقبل أن يرد فصيح بشيء سمع الجميع صوتاً من داخل المنزل يقول :

– أيها الغبي سوف تقحمنا في جريمة قتل لا مسوغ لها بعد أن انتهت العملية وحصلنا على ما طلبنا .

أجابه صوت آخر :

– أترك الأمر لي .. سأدفنهما في هذه الحجرة .

اقشعر جسد خالد لهذه العبارة التي عرف من المعني بها ، وخطا وليد خطوة إلى الأمام تأهباً لاقتحام المكان لولا أن أمسك خالد بذراعه بشدة وهمس له قائلاً :

– صبراً يا وليد .. علينا أولاً أن نطمئن على عصام وليلى في الطابق

العلوي كما يقول فصيح .

وبينما كان خالد يفكر بطريقة يصل بها إلى الطابق العلوي دون أن يشعر أحد بهم إذ فتح باب المنزل وبرز منه سرور الذي أسرع إلى خالد ووقف أمامه يقفز ويصفق .

– همس خالد يسأله :

– سرور .. أين عصام وليلى ؟

ولم يجب القرد الذكي بشيء ولكنه جذب يد خالد في اتجاه الشارع وهو لا يزال يقفز في مكانه .

وفهم خالد اشارة سرور فالتفت فرحاً إلى وليد وقال له :

– يقول سرور انهما خرجا من هنا سالمين ، وهما الآن بخير .

قال وليد بارتياح :

– إذن هلمّ بنا نخرج من هذا المكان .

ولكن خالد كان قد قرر أمراً بعد اطمئنانه على سلامة عصام وليلى ، فقال :

– لا يا وليد .. لا ينبغي أن يفوزوا بالغنيمة .

وسار بحذر نحو الباب وراح يصغي إلى الحوار المنبعث من الداخل ، فسمع صاحب الصوت الأجش يقول :

– وعلى كل فالأمر متروك للزعيم .. ولكن كن واثقاً انه لن يغفر لك هذا الخطأ أبداً .

فأجابه الصوت الآخر :

– اذن سأذهب إليه الآن لنحل هذه المشكلة .
قال صوت ثالث رفيع :
– لا حاجة إلى ذلك .. سيضل هو بنفسه بعد دقائق .
اكتفى خالد بهذا القدر من المعلومات الهامة وهمس لوليد :
– إنهم ثلاثة .. ويحتمل أنهم مسلحون . ولكن المفاجأة في مصلحتنا .
وراح في هدوء يشرح لوليد خطة الهجوم الجريئة ، ثم همس في أذن سرور ببضع كلمات فهمها القرد الذكي في سرعة مدهشة .
فتحا الباب بهدوء ودخلا ومعهما كل من فينو وسرور . وصعدا الدرج حتى أعلاه ثم اختفيا على جانبيه وفي يد كل منهما عصا غليظة حملها معه من أرض الحديقة . وكمنا هناك .
وأما سرور فوقف في أسفل الدرج وراح يقوم بحركات ويحدث ضجة ليجذب إليه المجرمين الذين كانوا في إحدى الغرف الجانبية .
وبالفعل ، فلم يمض إلا قليل حتى انقطع الحوار الدائر بين المجرمين وخرج اثنان منهم كان أولهما يحمل مسدساً ، كما كان الآخر يحمل سكيناً .
وتلفت المجرمان في أنحاء الصالة فلم يريا شيئاً لأن القرد الذكي كان قد أسرع يقفز الدرجات لينضم إلى أعضاء الفرقة في الأعلى .
قال صاحب الصوت الأجش :
– لقد جاء الصوت من هنا .
أجابه الآخر :

– لا شك أنها قطة ضالة .

قال الثالث وقد لحق برفيقيه :

– إنها كذلك لا شك .

عاد صاحب الصوت الأجش يقول :

– هل أغلقت عليهما الباب جيداً . ؟

أجاب الآخر :

– طبعاً ، وبالمفتاح .

عاد الأول يقول :

– اذن ابق انت هنا لاستقبال الزعيم عند وصوله ، وسأصعد أنا ودياب لأرى الأسيرين .

وسمع خالد صوت خطوات الرجلين فوق درجات السلم فنظر إلى الجميع محذراً وآمراً بالاستعداد للعمل في اللحظة الحاسمة .

واقترب صوت الخطوات وظهر الرجل الملثم وسلاحه ما يزال في يده ، ومن خلفه رفيقه الذي يحمل السكين .. وحانت ساعة الصفر .. وانطلقت الفرقة .

كان فينو أول المهاجمين وأبرزهم أثراً في المعركة ، إذ ما كادت اللحظة المناسبة تتهيأ له حتى انقض في سرعة البرق والتقم اليد الحاملة للمسدس وراح يعض عليها بفكيه القويين .

وفي اللحظة التي طار فيها المسدس من يد المجرم الأول وراح يصيح من الألم محاولاً التخلص من فكي فينو ، كان المجرم الثاني على الأرض

يتلوى من الألم بعد أن تلقى ضربة قوية من عصا وليد أطارت السكين من يده .

وأسرع سرور يبعد المسدس والسكين عن متناول أيدي المجرمين بينما تعالت استغاثة المجرم الملثم :

– ابعدوا هذا الكلب اللعين عني .. إنه يأكل ذراعي .. إنه يأكلها .

وقبل أن يستفيق المجرمان من هول المفاجأة أسرع خالد فقيدهما بالحبل الذي حمله معه من صندوق معدات القسبا . وعندئذ فقط أمر فينو بالتخلي عن ذراع المجرم الدامية .

كانت ثواني حاسمة ونصراً ساحقاً للفرقة . ولكن ذلك لم يشغل فكر خالد الذي قال مشيراً إلى أسفل :

استعدوا فالثالث في الطريق .

وسمع صوت يصعد الدرج بخطوات بطيئة وهو يقول :

– ماذا حدث . ؟ ماذا جرى ؟

وقبل أن ينذره رفيقاه بالخطر الذي ينتظره قفز فينو من أعلى الدرج قفزة قوية سقط بعدها فوق صدر المجرم الذي اختل توازنه وراح يتدحرج على الدرجات حتى استقر أخيراً في أرض الصالة ، وتمدد هناك لا يأتي حراكاً وفينو جاثم فوقه مكشر عن أنيابه .

أسرع خالد ووليد إليه فقيداه وألقيا به إلى جوار الجدار . وقال خالد :

– لم يبق أمامنا سوى الزعيم .

قال وليد :

– هل ستذهب إليه ؟

قال خالد :

– بل سيأتي هو الينا .. وعلينا أن نعد له استقبالاً يليق به .

قال هذا ومضى إلى المجرمين المقيدين فسحبهم إلى إحدى الحجرات ، وكمم أفواههم ، ثم أغلق الباب عليهم ، وعاد إلى الصالة وهو يحمل في يده لفافة لم تكن غريبة الشكل تماماً عن وليد الذي سأل :

– ما هذا يا خالد ؟

أجابه ضاحكاً :

– إنها نقود العم سعيد .

شهق وليد دهشاً وقال متسائلاً :

– من أين أتيت بها ؟

أجابه بصوت خافت :

– من جيب المجرم الملثم الذي يحمل المسدس .

قال وليد :

– لماذا لا نرفع عن وجوههم هذه الأقنعة لنراهم ونعرف من يكونون ؟

أجابه خالد :

– لا داعي لذلك الآن .

وقبل أن يسأله عن السبب سمعه يطلق صفيراً حاداً من فمه تحذيراً لفينو وسرور ، وإيذاناً بالاستعداد والتأهب .

سمع وليد صوت خطوات سريعة في طريقها إلى الباب . ثم انفتح الباب

ودخل منه شخص غارق في ملابسه السوداء ، وأخرج من جيبه قناعاً ارتداه ، ثم تأهب لصعود الدرج عندما فوجئ بخالد ووليد وقد قبضا على ساعديه بقوة ، كما أحس بشيء يقفز على كتفيه ويعمل أسنانه بأذنه . وقبل أن يستفيق من هول المفاجأة غير المنتظرة كان فينو يقف أمامه متنمراً مزمجراً .

قال خالد :

– لا داعي للمقاومة ، فرجالك جميعاً مقيدون ، وها هو ذا مسدس أحدهما وهذه سكين الآخر .

سأل المجرم الجديد :

– ومن تكونون .. وماذا تفعلون هنا ؟

أجابه خالد بصوت ساخر :

– أجبه يا وليد .. إنه يسألنا من نكون ، ولماذا نحن هنا ؟

وأدرك وليد المطلوب منه فسدد إلى فك الأسير لكمة قوية ألقته على الأرض . وقبل أن يستفيق كان هو الآخر مشلول الحركة مقيداً بإحكام .

قال يائساً :

– ماذا تريدون .. فكوا قيدي وسأعطيكم ما تطلبون .. هل تريدون مالاً ؟

أجابه وليد بهدوء :

– كم تعرض ؟

هتف به وليد مستنكراً :

– خالد .. !

ولكن خالداً أسكته بنظرة خاطفة ، وعاد يقول للأسير :

– تكلم .. كم تدفع لنطلق سراحكم ؟ .

أجابه بلهفة واضحة :

– اطلب ما تريدون ، وسأدفع فوراً .

أجابه خالد بهدوء وبرود شديدين :

– سنأخذ عن كل واحد خمسة آلاف .

تدلى فك الرجل دهشة وقال :

– هذا مبلغ كبير . ! ولا يملك هؤلاء مثل هذا المبلغ .

قال خالد ساخراً :

– ادفع عنهم .. أليسوا رجالك ؟

كان الذعر قد استبد بالرجل فقال :

– ولماذا تربط مصيري بمصيرهم . ؟ سأدفع لك عن نفسي خمسة آلاف .

رماه خالد بنظرة احتقار وقال :

– معنى ذلك أنك خائن وأناني لا تحب إلا نفسك . ومع ذلك فهذا شأنكم فمن يدفع يطلق سراحه ، أما من لا يستطيع الدفع فسوف يسلم إلى الشرطة .

وأدرك الرجل أنه أمام مساوم غير سهل ، فقال :

– اسمع أيها الفتى .. إن كل ما نملك هو خمسة آلاف أخرى .. سأعطيك اياها وتطلق سراح الجميع .. هيه .. ماذا قلت ؟ عشرة آلاف ستجعلك

من الأغنياء ؟

نظر خالد إلى وليد وتظاهر بأنه يقبل بالعرض :

– ما رأيك يا وليد .. هل يكفي هذا المبلغ ؟

أجابه وليد وقد أدرك أنه يريد السخرية والتلاعب بعواطف المجرم :

– للأشقياء الأربعة . ؟ الأمر متروك إليك وان كنت أظن أن خمسة آلاف ثالثة قد تكفي إذ يبدو أنهم فقراء حقاً .

ويظهر أن المشهد طال أكثر من اللازم ، مما أورث نفس سرور الملل ، فانسل من المكان بهدوء ، وما كاد يصل إلى الطريق حتى أسرع قافزاً ، وببراعة وذكاء تسلق شرفة منزل الجد ، ودخل إلى حيث كانت ليلى فألقى بنفسه في حجرها وراح يقبلها . وقال عصام بفرح :

– يبدو الفرح على سرور ، ربما يكون خالد قد حقق نصراً .

والتفت إلى سرور وقال :

– خالد .. أين خالد يا سرور ؟

جذبه سرور من يده ليتبعه وهو لا يزال على فرحته وسعادته . وقالت ليلى :

– إنه يطلب منا السير معه . هلمّ بنا يا عصام .

واكتشفا حين تبعاه أنه يقودهما في الطريق نفسه الذي هربا منه من قبل ، وأنه يعود بهما إلى المنزل الذي كانا فيه أسيرين . قالت ليلى :

– عصام .. إنه يعود بنا إلى المنزل الملعون .

أجابها عصام وقد خامره الخوف :

– يبدو ذلك يا ليلى .. فهل نستمر ؟ أم أن الأفضل أن نذهب إلى بابا ونعود معه ومعنا رجال الشرطة ؟

توقفت ليلى برهة تفكر ، فعاد سرور يسحبها بقوة وإصرار لتسير معه .. وكأنما شجعتها حركة سرور فقالت :

– هيا يا عصام .. سنذهب مع سرور فلا بد أن الأمر قد اختلف تماماً .

ولم يكد الثلاثة يبلغون بوابة المنزل حتى انطلقت ليلى تصرخ بكل قوتها :

– خالد .. وليد .. خالد .. وليد ..

انفتح باب المنزل وظهر منه وليد باسماً يدعوهما للدخول :

– تعاليا .. إن في الداخل تمثيلية رائعة لا ينبغي أن تفوتكم .

ودخلوا بسرعة ليشاهدوا المجرمين مرميين على الأرض فصاحت ليلى :

– انهم هم . ! انهم هم .

وأشارت إلى الرجال الثلاثة فقال خالد :

– من أين عرفت ؟ يجب أن نكشف الأقنعة عن وجوه اثنين منهما لم ترياهما من قبل .

نظرت ليلى إلى الزعيم وقالت :

– لم يكن هذا معهم .

أجابها ساخراً :

– إنه أحد الملثمين ، وهاك الآخر .

وأشار إلى الرجل المقيد ثم استأنف يقول :

– كنا نساومه في قيمة الفدية التي ستدفعها العصابة حتى لا نسلمها إلى

الشرطة وقد وصلت القيمة قبل دقائق إلى عشرة آلاف . وأنا أرى أن نوافق على ذلك رحمة بهذا الرجل الطيب .

وأشار إلى الزعيم الذي أسعده كلام خالد فقال :

– إنه مبلغ كبير . ولكن شجاعتكم تستحق أكثر من هذا بكثير .

ذهب إليه خالد يسير في خطوات بطيئة ثم توقف أمامه وقال ببطء :

– إليّ بالمبلغ ..

تملص الرجل محاولاً فك قيوده ، ولما أخفق قال :

– حل وثاقي لآتيك به .

قطع خالد الحبل الذي كان يقيد قدميه وقال :

– تستطيع أن ترشدنا إلى مكان النقود ، أو تذهب بنا إلى حيث نجدها ، ولا أظن أنك في حاجة إلى استعمال ذراعيك .

ولما انتهى خالد من فك وثاق قدميه قال :

– ومع ذلك .. ها قد حللنا وثاقك ، فإلينا بالمبلغ .

قال المجرم :

– سأدفع لكم خمسة آلاف هي معنا هنا . وسيذهب أحدكم معي لأعطيه خمسة آلاف أخرى .

قال له خالد :

– إذا فكرت في الهرب فسوف يتولى رجالك الإرشاد إلى مكانك .

سار الزعيم إلى صاحب الصوت الأجش وقال له :

– أين المبلغ . ؟

أجابه المجرم في ذهول :

– كان المبلغ معي قبل أن أفقد رشدي .. لقد أخذه هؤلاء الشياطين .

امتقع وجه الزعيم وقال لخالد :

– هل تسخر مني . ؟ لقد أخذتم خمسة آلاف من رجلي هذا .

أجابه خالد :

– لا .. لقد أخذنا مالنا الذي دفع لكم .

كاد الزعيم يفقد عقله من شدة غيظه وقال :

– اسمع أيها الفتى .. إن المطلوب مني الآن هو خمسة آلاف . فليذهب أحدكم معي لاستلامها ، وكفى .

وتداول المغامرون فيما بينهم ، ثم اتخذوا قراراً تولى خالد ابلاغه لزعيم العصابة قائلاً :

– بعد مداولة سريعة رأينا أن تسليمكم المبلغ لأحدنا أمر مشكوك فيه . لذلك نحن نفضل أنْ يأتينا المبلغ إلى هنا .

قال الزعيم :

– وكيف ذلك وأنا أسير ههنا ؟

هز خالد كتفيه بعدم اكتراث وقال :

– هذه مشكلتك فحاول أنت أن تحلها .

فكر الزعيم قليلاً ثم قال :

– سأعطيكم رسالة إلى أحد أعواني الذي سيدفع لكم خمسة آلاف .

قاطعه خالد :

– من قال إن المبلغ خمسة آلاف . ؟ انه عشرة لا خمسة .

حاول الرجل المساومة ولكن قاطعه خالد قائلاً :

– لا مجال للمساومة .. إما عشرة آلاف وإما أن نسلمكم إلى الشرطة .

كان لهذا التهديد أثره القوي إذ قال الزعيم مستسلماً :

– هاتوا ورقة وقلماً .

وكتب خطاباً سريعاً ووقعه بعد أن حلوا وثاق يديه . وقال لخالد :

– فليذهب أحدكم بهذه الرسالة إلى هذا العنوان . وسيقابل أخي هناك ويستلم منه المبلغ .

وتطوع وليد للقيام بالمهمة ، وخرج مسرعاً ، بينما أعاد خالد وعصام القيد إلى ساقي الزعيم الذي حاول الاعتراض لولا أنه رأى تكشيرة فينو المخيفة فاستسلم للأمر الواقع .

التفت خالد إلى عصام وليلى وقال باسماً :

– كيف حدث لكما ذلك .. كيف استطاع هؤلاء الأغبياء اختطافكم ؟

اشتد الغضب بليلى وقالت :

– لقد خدعونا .. كانوا واقفين في الطريق إلى جوار سيارتهم . وأشاروا إلينا ، ولما توقف عصام قال أحدهم :

– لقد تعطلت سيارتنا فنرجو إذا وصلتم إلى الضيعة أن تخبروهم بحالتنا .

وفي هذه اللحظة أحاطوا بنا ، وركب أحدهم دراجتنا ، وأركبونا في السيارة بعد أن عصبوا أعيننا .

قال خالد :

– وكان راكب القسبا يسير أمامكم .. أليس كذلك ؟

سأله عصام بدهشة :

– وكيف عرفت ذلك ؟

ابتسم خالد وقال :

– كانت آثار القسبا واضحة . وفجأة انطمس الأثر عمداً فقد ظهر فوقه أثر عجلة سيارة تعمدت السير فوقه .. ولكن أخبروني .. هل مررتم في الطريق إلى هنا ببستان رجل شيخ يسمى بنافع كرم ؟

أجابته ليلى :

– لست أدري يا خالد . ولكن ما حدث يرجح ذلك ، فقد توقفت بنا السيارة وأنزلونا منها وأدخلونا إلى منزل .

قاطعها خالد :

– هل صعدتم بضع درجات ؟ تذكري جيداً .

أجابه عصام :

– نعم صعدنا بضع درجات ، وإذ كانت عيناي معصوبتين كدت أتعثر وأقع .

قال خالد :

– إذن فوليد في طريقه إلى قاسم .

سألاه باستغراب :

– ومن يكون قاسم هذا ؟

أجابهما بهدوء :

– ستعلمان حالاً .

والتفت خالد إلى الزعيم وقال :

– إنني أحس عنكم بالاختناق لهذا اللثام الذي يكتم أنفاسكم . وعلينا أن نعرف وجهك حتى لا نقع بين براثنك مرة أخرى .

وحاول الزعيم الاحتجاج ولكن دون جدوى فقد حسر خالد القناع وشاهدوا وجه الزعيم الذي لاحت عليه علامات ادمان المخدرات بوضوح .

قال خالد ساخراً :

– ماذا تتوقع . ؟ هل سيحضر قاسم بنفسه ؟

جفل الرجل وحملق في وجه خالد بذعر وقال دون وعي :

– قاسم .. ومن أين تعرفه ؟

ضحك خالد وقال :

– اننا نعلم كل شيء عنكم .. ولذلك عندما سقطتم في أيدينا سقطتم جميعاً . وسيكون ذلك مصير قاسم إذا لم يتصرف بحكمة .

أجاب الزعيم قائلاً :

– سيدفع لكم .. ثق أنه سيدفع .

هز خالد كتفيه بعدم اكتراث وقال :

– أرجو أن يكون عند حسن ظنك به ، وإلا فثقوا أن أبواب السجن مفتوحة تنتظر تشريفكم .

أجابه الرجل :

– اطمئن .. سيصل صاحبكم بالمبلغ قريباً .

وسار خالد إلى الملثم الثاني ، وانتزع القناع عن وجهه فصرخ عصام بدهشة :

– من . ؟ أنت . ؟

تطلع إليه الرجل وعيناه تتقدان وقال بشراسة :

– نعم أنا .. اذهب وأخبر والدك عني ..

سأله خالد :

– يبدو أنه يعرفك ويعرف والدك ؟

هز عصام رأسه ايجاباً وهو لا يزال تحت تأثير الدهشة التي استبدت به وقال :

– انني لا أكاد أصدق عيني .. إنه ..

ولم يتم كلامه فقد تناهى إلى سمعهم صوت جلبة وخطوات سريعة ، ثم انفتح الباب بقوة وامتلأ المكان برجال الشرطة ومعهم العم سعيد .

وما كاد الوالد الواله يرى ولديه حتى هتف بفرح :

– ليلى .. عصام .. الحمد لله .. الحمد لله ..

ارتمت ليلى في أحضان والدها باكية فامتزجت دموعها بدموعه حين سمع الجميع صوتاً مألوفاً يصيح :

– فصيح رائع . ! فصيح رائع . !

نظر خالد إليه وأدرك كل شيء .. لقد سبقهم فصيح وبشر العم بنجاة عصام وليلى ، وأقنعه بالمجيء إلى مكانهما .

قال العم سعيد :

– فصيح بطل عظيم . !

رد فصيح بزهو :

– فصيح عظيم .. فصيح بطل عظيم .

ضحك ضابط الشرطة وقال :

– انه حقاً بطل وذكي جداً .. لقد أعاد على مسامعنا كل ما دار بينكم وبين رجال العصابة من حوار ، فأدركنا من حديثه أنهم في أيديكم .

ضحك خالد وقال :

– حقاً لقد اشترك الجميع في هذه المغامرة وقام كل منهم بدوره أحسن قيام .

كان عصام ينظر إلى والده بعطف وأقبل عليه فهمس في أذنه ببضع كلمات التفت الوالد على أثرها ونظر إلى المجرم الذي هتك قناعه أخيراً وقال :

– آه أيها المجرم .. أنت تخطف أولادي ؟

سأله الضابط :

– هل تعرف المتهم ؟

قال السيد سعيد :

– إنه عزاوي .. عزاوي الذي ربيته كأحد أولادي .

قال الضابط لرجال الشرطة :

– اقبضوا عليهم .

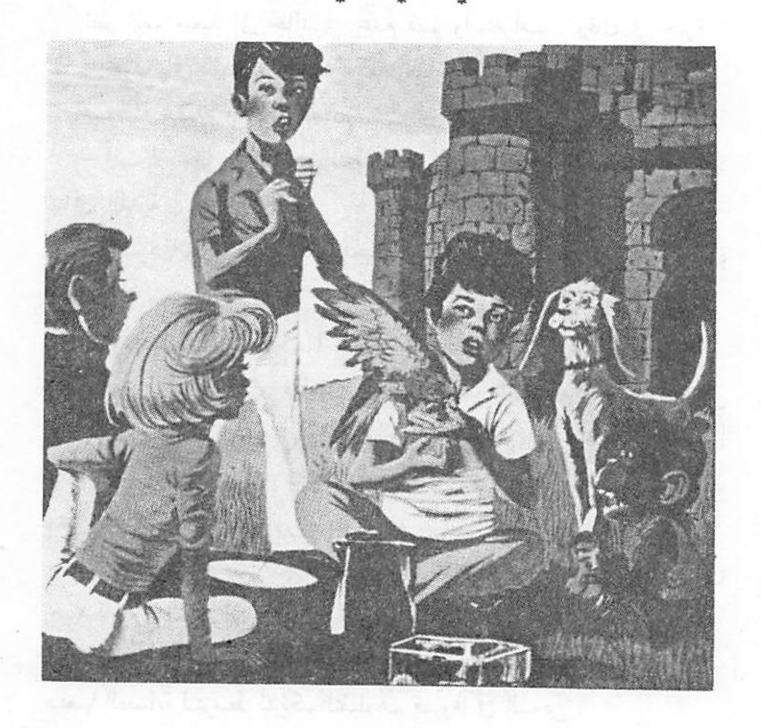
قال خالد :

– لحظة من فضلك .. للعصابة بقية هي في طريقها إلى هنا ..
ثم مد يده باللفافة وقال :
– ها هو ذا مبلغ الفدية وقد استعدناه منهم . أما باقي الفدية فأرجو أن يصلنا الآن .
نظر العم سعيد إلى خالد في عدم فهم واستغراب . وقال في حيرة :
– تقول باقي الفدية . ؟ ولكن هذه اللفافة فيها كل الفدية .
ضحك عصام وقال لوالده :
– أنت لا تجهل ألاعيب خالد يا بابا .. انتظر لحظات وستعرف المقصود بباقي الفدية .
ومرت دقائق قليلة سمعوا بعدها صوت الفسبا تقف أمام الباب فقال خالد :
– فينو .. سرور .. هيا . ! اسرعا ..
وأطاع الحيوانان الأمر فوقفا على جانبي الباب الذي ما كاد يفتح ويدخل منه قاسم حتى قفزا عليه في وقت واحد ، فأمسك فينو بيده وراح يعضها بقوة ، بينما اعتلى سرور كتفيه وراح يقضم أذنه . ولم يشأ فصيح أن يقف متفرجاً فأقبل على المجرم وراح ينقر أنفه نقرات مؤلمة .
وأقبل خالد فخلص المجرم من أيدي الحيوانات الثلاثة ، ثم مد يده إلى جيبه فأخرج النقود التي به والتفت إلى الضابط وقال :
– تفضل يا سيدي الملازم .. ها هي ذي بقية الفدية ... عشرة آلاف دفعتها العصابة لنتوسط لديكم لتقبلوهم ضيوفاً في السجن .

صاح فصيح :

– السجن .. السجن .. خالد رائع .. فصيح رائع .. العصابة حمير . !

* * *



طبع في دار النفائس ص.ب ١١/٦٣٤٧ هاتف: ٨١٠١٩٤ - بيروت